جامعة صلاح الدين / أربيل
كلية العلوم الإسلامية / قسم الشريعة
المرحلة الثالثة

محاضرات في
العقيدة الإسلامية
الإلهيات، النبوات، السمعيات

أ.د. عادل عبدالله حمد

٢٠٢٠ – ٢٠٢١م

تعريف العقيدة

في اللغة والاصطلاح

أولاً : تعريف العقيدة في اللغة:

العقيدة لغة: من عقد واعتقد .

والعقيدة هي كل ما عقد الإنسان عليه ، وهو بمعنى الربط ، والشد ، والقوة ، وإحكام ، ومنه الإبرام ، والتَّماسك ، والتَّوثيق ، والتأكيد ، والجزم ، وكلها تسمَّى عقداً ، ثم استعملت في التصميم ، والاعتقاد الجازم .

ثانياً : تعريف العقيدة في الاصطلاح :

العقيدة اصطلاحاً : هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية ، بإيراد الحجج ، ودفع الشبهة ، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل ، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد ﷺ .

أسماء هذا العلم وأسبابها

سمي علم العقائد أو الباحث في المسائل الايمانية بأسماء مختلفة ، وذلك تبعاً لأهميته في نفوس الخاصة والعامة .

فقد أطلق أهل العلم أسماءً كثيرة على هذا العلم لتمييزه عن غيره، حتى أصبحت تلك الأسماء أعلاماً على العلم الشريف التي هي علم(العقيدة)، وقد قيل إن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، ومن أشهر أسمائها :

(١) الفقه الأكبر: وسميت بذلك تمييزاً لها عن فقه الفروع : كفقه الطهارة، والزكاة والصوم ، والزواج، والطلاق، والميراث وغيرها. قال الإمام أبو حنيفة : " الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم، لأن الفقه في الدين أصل، والفقه في العلم فرع، وفضل الأصل على الفرع معلوم".

(٢) علم النظر والاستدلال : سمي بهذا الاسم لأنه يعتمد منهج النظر الفكري ، والاستدلال العقلي وسيلة لإثبات أصول العقائد التي تثبت بالنصوص الدينية.

(٣) علم التوحيد والصفات : سمي بهذا الاسم لأن أشهر مباحثه، وأهمها خطراً، مبحثا التوحيد والصفات الالهية .

(٤) علم العقائد : سمي بهذا الاسم لأنه يتكفل ببحث العقائد الدينية ، واثباتها بالأدلة اليقينية ، والدفاع عنها ضد العقائد والافكار المخالفة لها .

(٥) علم الكلام : اشتهر بهذا الاسم لعدة أسباب، أهمها:

(أ) إن أهم مسألة وقع الخلاف فيها، واشتد النزاع حولها في القرون الأولى كانت حول مسألة (كلام الله تعالى) هل هو أزلي قائم بذاته تعالى، أم مخلوق حادث ؟ فسمي العلم باسم أهم مسألة فيه .

(ب) أو أنه يتحقق بالمباحثة وادارة الكلام بين الجانبين ، وغيره قد يتحقق بالتأمل ومطالعة الكتب .

(ج) لعل أوجه الأسباب أن أصحابه (المتكلمين) تكلموا فيما كان السلف من الصحابة والتابعين يسكتون فيه ، فالكلام ضد السكوت ، والمتكلمون كانوا يتكلمون حيث ينبغي الصمت اقتداءً بالسلف الذين لم يخوضوا في المسائل الاعتقادية إلاَّ بحد ضيق .

(٦) أصول الدين : سمي بهذا الاسم لأنه أصل المعارف الدينية لابتنائها عليه وتفرعها عنه ، ولأنه يتكفل ببيان ما يعتبر من أصول الدين وأركانه التي لا يتم الايمان بدونها.

وهو مقابل علم الفقه الذي يتكفل ببيان الفروع العلمية.

ومقابل علم الأخلاق والتصوف الذي يعنى بجانب السلوك والأخلاق على أساس من الذوق الروحي والوجدان القلبي .

مصادر المعرفة (علم العقيدة)

إن مصادر المعرفة في علم العقيدة نوعان:

أولاً: مصدر التلقي:

(١) القرآن الكريم.

(٢) السنة النبوية الشريفة الثابتة الصحيحة، فالرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلاَّ وحي يوحى .

ثانياً: مصدر الاستدلال:

(١) الحواس السليمة (السمع، والبصر، والشم، واللمس).

(٢) الخبر الصادق (المطابق للواقع)، وهو نوعان:

(أ) الخبر المتواتر، وهو الخبر الثابت على ألسنة قوم لا يتصور تواطؤهم على الكذب، وهو بالضرورة موجب للعلم الضروري، كالعلم بالملوك الخالية في الأزمنة الماضية والبلدان النائية.

(ب) خبر الرسل (عليهم السلام) المؤيد بالمعجزات، وهو يوجب العلم الاستدلالي، أي يحصل بالاستدلال والنظر في الدليل.

(٣) العقل السليم، والفطرة السليمة المستقيمة، اللذان يوافقان الأدلة المذكورة، ويدركان ضرورة النبوات، وإرسال الرسل، وضرورة البعث والجزاء وعلى الأعمال على الإجمال لا على التفصيل.

مناهج البحث في العقيدة.

العامل الأول في إخضاع الفكر الإسلامي لمنهج علمي دقيق في البحث إنما هو الدين ، وما كان للمسلمين ـ لولا العقيدة الدينية ـ أن يحمِّلوا أنفسهم منهج شاق يستنفد الكثير من الوقت والجهد دون أن يكون له حصيلة من كسب مادي معين .

ويتمثل هذا الدافع الديني في نصوص كثيرة من كتاب الله تعالى كقوله تعالى : { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } [١] .

وقوله تعالى : { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } [٢] .

فيتضح من النصين السابقين أن الدافع الديني تنهي عن تبني أي فكرة ، حتى الدين نفسه ، إلاَّ عن طريق ما يثبته العقل الصافي من الدلائل اليقينية التي من شأنها أن تكشف عن حقيقة المطلوب .

وعليه فقد قرر العلماء أن من شرائط إيمان المؤمن أن يكون قائماً على دعائم من اليقين العلمي المجرد ، لا على شوائب من التقليد والاتباع .

أضفى الإسلام الصفة الدينية على البحث عن الحقيقة بنبراس العلم والفكر المجردين .

فأن كان غير المسلم من شأنه أن يندفع إلى البحث برغبة التطلع .

فأن المسلم مدفوع إلى البحث ذاته شعوراً منه بأنه واجب يثاب على فعله ويعاقب على تركه.

---

(١) سورة الإسراء : ٣٦.

(٢) سورة يونس : ٣٦ .

منهج البحث عند علماء المسلمين

يتخلص المنهج العلمي للبحث عند علماء المسلين على قاعدة جليلة كبرى ، لم يعرف مثلها عند غيرهم وهي قولهم : " إن كنت ناقلاً فالصحة ، أو مدعياً فالدليل " .

وتفصيل الأمر في ذلك أن موضوع البحث لا يخلو دائماً من أن يكون خبراً منقولاً ، أو دعوى مدعومة ، فأما ما قد يكون منه خبراً فإن البحث فيه ينبغي أن يكون محصوراً في تحقيق النسبة بينه وبين مصدره ، إذ هي التي تكون مثاراً للاحتمال والدخيلة والريب ، فأن زالت الاحتمال وانجابت الغاشية انبثقت من ذلك الخبر حقيقة علمية معينة ، بشرط أن يكون ذا دلالة قطعية.

وأما ما يكون منه ادعاء، فأن البحث فيه ينبغي أن يتجه إلى الأدلة العلمية المنسجمة معه والتي من شأنها أن تكشف من مدى صدق هذا الادعاء.

السبيل المتخذة لتحقيق الخبر:

تنهض بهذا السبيل فنون عديدة خاصة لم يعثر عليها التاريخ إلا في المكتبة الإسلامية ، وهي فن مصطلح الحديث ، وفن الجرح والتعديل ، وتراجم الرجال ، حيث تلتقي هذه الفنون الثلاثة على وضع ميزان دقيق يتضح فيه الخبر الصحيح من غيره ، والفرق بين الخبر الصحيح الذي يورث الظن ، والذي يورث اليقين.

فأما الظني (الخبر الأحاد) من الخبر الصحيح فلا يعتد به الحكم الإسلامي في بناء العقيدة ، لأنه إنما يفيد الظن ، ولقد نهى القرآن الكريم في مجال البحث في العقيدة عن اتباع الظن، ولكن يعتد به في نطاق الأحكام العملية ، ولذلك صح أن تستند الأحكام الشرعية إلى الأحاديث الصحيحة وإن كانت آحاداً ، وذلك حيطة في الأمر وأخذاً بالحزم .

غير أن اليقيني من الخبر الصحيح وهو ما يسمى بالخبر المتواتر ، وهو وحده الذي يعتد به في بناء العقيدة والمدركات اليقينية بمعنى أن الإنسان لا يجبر على الاعتقاد بشيء خبريّ إلاَّ إذا كان قائماً على برهان التواتر ، فإن كان دليله خبر آحاد ، كان اليقين به عائداً إلى القناعة الشخصية التي يراها من نفسه .

السبيل المتخذة للتحقيق في الادعاء:

يختلف هذا السبيل حسب اختلاف نوع الادعاء، فما كان منه متعلقاً بوجود مادي يتناوله تحليلاً أو تكييفاً ، فلا بد من الاعتماد فيه على شواهد وبراهين بوجود من الحواس الخمس ، أي على التجربة والمشاهدة ، إذ هي الوسيلة الطبيعية إلى الإدراك اليقيني في مثل هذه الأمور، وإن العلم لم يستطع أن يقدم لنا إلى اليوم أي حقيقة علمية تختلف أي جزئية من جزئيات العقيدة الإسلامية .

وأما كان من الدعاوى متعلقاً بأمر تجريدي أو غيبي غير خاضع لشيء من الحواس الظاهرة، فمنه ما تجد في الكتاب أو متواتر السنة نصاً واضحاً ، ومن ما لا تجد في شيء منهما حديثاً واضحاً عنه .

فأما المنصوص عليه في أحدهما : فهو داخل بذلك في المدركات اليقينية .

وسبيل اليقين به أنه من حيث نقل القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ويرجع إلى الخبر اليقيني المتواتر ، إذ القرآن إنما هو اللفظ الموحى به إلى سيدنا رسول الله ﷺ والواصل إلينا عن طريق التواتر ، ومثل القرآن في ذلك السنة إذا وصلت إلينا متواترة .

ولقد خاض علماء الكلام في مسائل الغيبية عن طريق العقل والفكر المجرد دون أن يضعوا الخبر الصادق واسطة بينها وبينهم ، ولكن لم يكن ذلك من أجل أنه السبيل الوحيد ، وإنما من أجل أن يشقوا إلى اليقين بها طريقاً أخرى عن البحث ـ إلى جانب طريق الخبر الصادق .

وأما ما لم يتعرض له الخبر المتواتر اليقيني بأي نص واضح صريح صحيح ، فينحصر السبيل إلى معرفة الحق فيه بالنظر العقلي وحده، وهو يتحقق بمسلكين اثنين:

المسلك الأول: دلالة الالتزام

وهي أن يطرد ترابط بين شيئين بحيث إذا تأملت أحدهما تصورت الآخر.

وإنما يتم ذلك بعد أن يشهد له الاستقراء التام ، وهو أن تتبع الحالات والظروف المختلفة كلها لوجود هذين الشيئين ، فتجدهما متلازمين دائماً .

وذلك كدلالة النحول الشديد على المرض ، وكدلالة المآذن في البلدة على الإسلام أهلها ، وكدلالة صوت الصفارة الخاصة بعربة الإطفاء على حدوث حريق ، وكدلالة عربدة الرجل في الطريق على أنه قد شرب مسكراً .

فالدال في مثل هذه الأمثلة كلها ليس علة للمدلول ، حتى تقول إن دلالته عليه من قبيل دلالة العلة على المعلول ، إذ النحول ليس علة للمرض ،

والمآذن الصاعدة ليس علة لإسلام أهل البلدة ، وصوت الصفارة ليس علة للحدوث الحريق ، وعربدة الرجل ليست هي العلة لشربه السكر .

وعندما نشاهد الدالّ في هذه الأمثلة لا نبصر معها المدلول ولا نشاهده ، حتى نقول إن الدليل هو الرؤية والمشاهدة ، بل هو شيء خفي عن مشاهدتنا وإحساسنا .

إذاً كيف دلت هذه الأشياء على مدلولاتها ، وكيف نؤمن بها دون أن نراها ؟ ! .

إن سبيل الدلالة أنها عرفت بملازمتها الدائمة لملزوماتها ، وتكرر ذلك دون تخلف ، وتم ذلك على الاستقراء ، فتكونت من هذه المقارنة الدائمة رابطة دلالة سارية بينهما .

فمثلاً إن الذي يرى سيارة الإسعاف وهي تنهب الأرض بصفيرها المتواصل ، لا يشك أن ثمة مريضاً يعاني من حالة خطيرة على حياته وإن لم يكن يراه بعينه .

فالرجل الذي يشرف بنا على قرية ويقول : إن جميع أهلها مسلمون ، لا يمكن أن نصدق كلامه هذا ، على الرغم من أننا لم نجد أحداً من اهلها ولم نقف على اعتقادهم وما يدينون به عن طريق التجربة والمشاهدة .

المسلك الثاني : القياس

وليس المقصود به القياس المقتبس من الفلسفة اليونانية، والقائم على القضايا والأشكال ، إنما المقصود به ذلك القياس الذي اصطلح عليه علماء أصول الفقه الإسلامي ، والمتكلمون بعد أن استلهموه من كتاب الله تعالى.

منهج البحث عند الغربيين

إن من يتمعنَّ النظر في المنهج الغربي للبحث يجده خالياً من أي ميزان موضوعي لتحقيق كل ما يتعلق بالرواية والنقل .

هنالك ما يسمونه بالمنهج الاسترادادي ، عمدته الأولى ما قد يتمتع به الباحث من عمق الملاحظة ودقة الوجدان واتساع دائرة الخيال ، والأداة التي يستخدم بها الباحث ، وملاحظته ووجدانه وخياله ، وكل ما قد يقع عليه من آثار وأحداث ووثائق.

وكيفية البحث، هي:

أن يعكف الباحث على ما تجمَّع لديه من هذه الآثار أو الأحداث ، فيقدح فيه الملاحظة والوجدان والخيال ليستنتج من وراء ذلك ما قد يطمئن إليه من مبادئ وأحكام ووقائع .

وعليه فأن المنهج الغربي لا يملك مهما جمع من العدة والوثائق إلاَّ سبيلاً واحداً ، وهو سبيل الاستنتاج الفكر الغيبي المجرد ، وما كان الاستنتاج المجرد عن التجربة والمشاهدة والاستقراء التام والرواية الصادقة إلاَّ رديف الوهم والشك أو الظن المتقلقل الضعيف .

وذلك باستثناء الاعتماد على وثائق تاريخية تحمل في طيِّها دلالة اليقين ، نظراً لما بينها وبين مصدرها علاقة العلة بالمعلول أو اللازم والملزوم [1] .

---

(١) ينظر : كبرى اليقينيات الكونية : ٣١ □□ ٦٤ .

•

حالة العقائد
عند الأديان السماوية السابقة

اتضح لنا من خلال المحاضرات السابقة أن علم أصول الدين من العلوم الدينية المصطبغة بصبغة عقلية.

وإن موضوعه : يتعلق بإثبات العقائد الدينية.

وإن غايته : هي إثبات المسائل الإيمانية أو العقائدية والدفاع عنها.

وأوضحنا أن هذا العلم أصل، وغيره فرع، فهو أصل لجميع علوم الدين.

ومن الجدير بالبيان أن هذا العلم كان معروفاً عند الأمم قبل الإسلام .

وكان رجال الدين والقائمون عليها يعملون ويقيمون على حفظه وتأييده ضد الأفكار المناوئة والمخالفة لهم .

وكان يلجئون في سبيل نصرة أفكارهم ومعتقداتهم إلى الأدلة العقلية .

ولكن الشيء الذي يدعوا إلى التنبيه إليها أنه على الرغم من استدلالهم بالأدلة العقلية إلا أنها كانت بصورة ضئيلة مقارنة مع ديننا الحنيف .

فقد كان منهجهم في تقرير المسائل العقدية قائماً على أساس تفسير نصوص من الكتاب المقدس بعهديه : (العهد القديم ، والعهد الجديد) التوراة والإنجيل .

وإضافة إلى هذه الوسيلة فقد كان لهم وسيلة أخرى في الدعوة ، فقد كانوا يقومون إقناع الناس بذكر معجزات أنبيائهم أو إلهائهم بالخيالات والأساطير ـ الخرافية ـ عند الأمم السالفة .

لذا يمكن القول أن دعائم الأديان السماوية السابقة ـ خاصة اليهود والنصارى في مجال الدعوة ـ كانت تقوم على :

(١) تفسير نصوصهم .

(٢) إقناع الناس بمعجزات الأنبياء والرسل .

أما الإسلام الحنيف : فإنه أتى بمنهج مغاير عما سبقه، أو بمعنى آخر أنه جاء بتغيرات وإضافات عما كان عليه الأديان السماوية السابقة.

فقد جاء القرآن الكريم فنهج في بيان الدين عامة ، والعقائد خاصة منهجاً لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة، فلم يقتصر على ذكر العقائد الدينية، ولم يطلب من الناس الإيمان بها والتسليم لها بمجرد حكايتها وبيانها، وإنما أقام البرهان عليها.

فقد ذكر القرآن الكريم بالتفصيل عقائد المخالفين، وبين الحجة على فسادها وبطلانها.

وفي مجال الدعوة وإقناع الطرف الثاني نرى ان الإسلام يخاطب العقل : (على خلاف الأديان السابقة) واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإتقان على انظار العقول، وطالب المخاطب اعتناقها باليقين.

قوله تعالى : {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} (سورة الأنبياء: ٣٠) .

وقول الله تعالى : {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } . (سورة البقرة : ٢٢).

وقوله تعالى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (سورة البقرة : ١٦٤).

وقوله تعالى : { يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } (سورة فاطر : ٣).

قوله تعالى : {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } (سورة الأنعام : ٩٩).

قوله تعالى : { يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}(سورة البقرة: ٢٢).

وخلاصة القول أن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلاّ في مقام التعليم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تاتي الإشارة إليه عارضة مقتضبة في سياق الآية.

بل القرآن الكريم ذكر العقل أو أشار إلى أهميته في كل موضوع من مواضعها، مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة.

ومما يدعو إلى الفخر والاعتزاز بهذا الدين أن القرآن الكريم ذكر في آياته أكثر من ثمانين آية تنبه على مظاهر الخلق ونظام الكواكب ...

حالة العقائد

في عهد رسول الله ﷺ

جاء الإسلام وحارب الوثنية الجاهلية، وقرر أن الدين واحد لا يختلف من دين إلى دين، وقرر أن كلها وحي الله تعالى إلى أنبيائه ورسوله.

فأصول هذه الأديان ثابتة لا يختلف من دين إلى دين، ولا يختلف فيها الرسل أو النبي (عليهم الصلاة والسلام).

أما الشرائع العملية فهي مختلفة ومتفاوتة بين الرسل والأنبياء لقوله تعالى:{ لِكلٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجَاً }، وتلك الشرائع حق وخير ما لم تنسخ، فإذا نسخت لم تبق خيريتها.

قال الزمخشري في قوله تعالى:"{ أُوْلئِكَ الَّذِيْنَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَده}.

المراد بهداهم طريقتهم في الايمان بالله وتوحيده وأصول الدين، دون الشرائع فانها مختلفة، وهي هدى ما لم تنسخ، فاذا نسخت لم تبق هدى، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبداً.

ومن الجدير بالذكر أن الدين الإسلامي تتالف من عنصرين اساسيين، هما : أصول ، وفروع ، أو بمعنى آخر : عقيدة، وشريعة.

أمّا العقيد فقد استوفى الله تعالى شروطها في القرآن الكريم، حيث بين الثوابت أو الكليات.

وكان الرسول ﷺ يحاور أهل الكتاب ، ويجادل المشركين ، ويجيب على أسئلتهم ، بشرط إذا لم تظهر عليها سمة الجدال والعناد ، وكان ﷺ يبين أدق مسائل العقيدة .

فتناول رسول الله ﷺ معرفة الله تعالى ، ووجوده ، ووحدانيته ، وتناول ، القضاء والقدر ، وبين حقيقة الروح ، والبعث ، والجنة ، والنار ، والنبوة ، وحقيقة الايمان ، وعلاقة الاسلام بالأديان الأخرى من خلال الآيات الكريمة ...

حكي ابن هشام أن جماعة من اليهود أتوا رسول الله ﷺ وسألوه : هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ؟ فغضب رسول الله ﷺ حتى امتقع لونه ثم نزل قوله تعالى : { قُلْ هو اللهُ أَحَدْ ... }

وعندما تلا الرسول ﷺ قوله تعالى : { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّم أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } ، فسأله فريق من المشركين : أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ كيف ذلك فنحن نعبد الملائكة ، واليهود يعبد عزيراً ، والنصارى يعبد عيسى بن مريم ... فأجاب الرسول ﷺ : { كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده } ، ونزل قوله تعالى : {وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُم إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُوْنِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيْهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } .

وقال ابن مسعود : إني لمع رسول الله في حرث بالمدينة وهو متكيء على عصيب ، فمر بنا ناس من اليهود ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فقال بعضهم : لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون ، فاتاه نفر منهم فقالوا : يا أبا القاسم ما تقول في

الروح؟ فسكت ثم قام فامسك بيده على جبهته فعرفت أنه ينزل عليه ، فانزل عليه قوله تعالى : { وَيَسْألونَك عَنِ الرّوحِ قُلِ الرّوحُ مِن أمرِ رَبي وَمَا أوتيتمْ مِنَ العلمِ إلاّ قَليلاً } .

ولكن الرسول الكريم ﷺ لم يكن يلجأ إلى الحوار أو الجدال إلاّ في مقام دعوة الخصوم إلى الدين الجديد ، وصرفهم عن أباطيلهم ، إذا ما تبين استعدادهم لذلك .

ومن الجدير بالبيان أن رسول الله ﷺ كان ينهى المسلمين من ممارسته بقصد تحصيل شيء من أصول الدين ، ويأمرهم بالوقوف فيها عندما جاء به .

أمّا الشريعة : فقد اشتمل القرآن الكريم على مبادئها وأصولها العامة ، ولكن أكثر المسائل الفرعية التي تناولها القرآن الكريم هي أحكام جزئية مجملة .

قام الرسول ﷺ ببيان تلكم المباديء والأصول ، ففسرها وبين المراد منها في أحاديثه الشريفة ﷺ .

ومما يدعوا الإشارة إليه في هذا المقام أن رسول الله ﷺ ترك باب الاجتهاد في المسائل الفرعية الفقهية مفتوحاً ، بخلاف المسائل العقدية فقد نهى رسول ﷺ الخوض فيها، أو كرها.

لذا فقد كان الصحابة الكرام يكرهون الخوض في المسائل الأصولية بخلاف المسائل الفرعية .

وبالجملة فقد مضى زمن النبي ﷺ والمسلمون على عقيدة واحدة هي : ما جاء في كتاب الله تعالى ، لأنهم أدركوا زمان الوحي ، وشرف صحبة صاحبه ، وأزال نور الصحبة عنهم ظلم الشكوك والأوهام .

حالة العقائد
في عهد الخلفاء الراشدين

بقى حال العقائد في عهد الخلفاء الراشدين على ما كان عليه في عهد السالف عهد رسول الله ﷺ ، فلم يقع في هذه المرحلة والعهد خلاف كلي يذكر في مسائل العقدية ، وإنما وقع خلاف في جملة من المسائل الفرعية الفقهية العملية .

وكان غرضهم ﷺ في تلك المسائل الفرعية كما يقول الشهرستاني : " إقامة مراسم الشرع ، وإقامة مناهج الدين " .

ولكن بعض من تلكم الخلافات الفرعية ارتفعت شأنها وتعاظم خطرها حتى صارت ذات صلة وثيقة بمسائل الأصولية ، وأساساً لقيام كثير من الفرق الإسلامية فيما بعد .

وفيما يلي نذكر أهم المسائل التي برزت في هذا العهد ، نذكرها كالآتي :

أولاً : إن أخطر خلاف حدث بين المسلمين عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرة هو اختلافهم في الخلافة ، وموضوعه من أولى الناس بخلافة الرسول ﷺ في حكم أمته ، رجال من الأنصار الذين آووا ونصروا رسول الله ﷺ ، أم رجل من المهاجرين الذين سبقوا إلى الاسلام وأوذوا وصبروا...أم رجل من عترة النبي ﷺ وآل بيته .

بعد مناقشات كثيفة استقر رأي الصحابة في ترشيح أبوبكر الصديق ﷺ لمنصب خلافة النبي ﷺ، وبذلك سكن الخلاف.

ولكن نرى أن هذا الأمر أو الخلاف يعود قوياً متشعباً في نهاية الخلافة الراشدة ، ويصبح سبباً باعثاً ورئيسياً في اختلاف المسلمين وتشتيت وحدتهم وصفهم .

ثانياً : واختلف المسلمون في عهد أبي بكر الصديق ﷺ في ما نعي الزكاة ، حيث نرى جماعة من الصحابة عارضوا الخليفة في قتالهم ، وكان على رأس هؤلاء سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ ، فقالوا للخليفة : كيف نقاتلهم وقد قال الرسول ﷺ : { أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا أله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم }.

وقال جماعة بل نقاتلهم ، حتى قال أبو بكر الصديق ﷺ : أليس قد قال : إلاَ بحقها ، ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو منعوني عِقالاً مما أدوه إلى النبي ﷺ لقاتلتهم عليه ، ومضى بنفسه إلى قتالهم ، ووافقه الصحابة .

وتجد الإشارة إلى أن هذا الخلاف كان أصلاً لما حدث بعد ذلك من خلاف في الإيمان وتضمنه للعمل أو عدم تضمنه له .

ثالثاً : ومن المسائل التي اختلف فيها الصحابة الكرام اختلافهم في تنصيص أبي بكر عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) بالخلافة ، فقد رضيه جمهور الصحابة .

ولكن بعضهم تبرم منه خوفاً من شدة عمر بن الخطاب ، فقالوا لأبي بكر عند مرضه : (وليت علينا فظاً غليظاً) .

فأجابهم الخليفة الصديق ﷺ: " لو سألني ربي يوم القيامة لقلت : وليت عليهم خيرهم لهم " .

ولكن هؤلاء الصحابة رجعوا عن رأيهم ، بعد أن رأوا عدالة عمر بن الخطاب ﷺ وسياسته الراشدة في إدارة الدولة ، وتعامله مع رعيته .

رابعاً : ومن المسائل التي اختلف فيها المسلمون في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ اختلافهم في شأن أرض سواد العراق وفارس ، فقال قوم تقسم ، وقال أمير المؤمنين : " بل تبقى ملكية عامة للمسلمين جميعاً " .

لأنه ﷺ خشي إذا قسم تلك الأراضي فتؤدي إلى ضرر على المجتمع ، ويمكن إيجاز نظرته ﷺ في عدم تقسيم تلك الأراضي كالآتي :

(١) إذا قسم كل أرض مفتوحة أن تجيء ذراري لا تملك شيئاً من الأرض .

(٢) الدولة يحتاج إلى الميزانية ما يسد الثغور ويحمي البلاد .

وهكذا نرى أن الصحابة ﷺ كلهم نزلوا عند رأيه ، ووافقوا عليه أجمعين .

خامساً : واختلف المسلمون أيضاً فيما اتخذ عمر بن الخطاب ﷺ في أمر الخلافة من الشورى بين ستة من الصحابة الكرام ، حتى نقموا على بيعة عثمان بن عفان ﷺ .

سادساً : ثم اختلفوا في بعض أعمال عثمان بن عفان ﷺ حيث أنكر قوم عليه أفعالاً عدة،منها :

(١) رده الحكم بن أمية إلى المدينة بعد أن طرده رسول الله ﷺ منها وكان يسمى طريد رسول الله ﷺ .

(٢) إيواؤه عبدالله بن سعد بن أبي السراح ، بعد أن أهدر النبي ﷺ دمه ، وتوليته إياه مصر بأعمالها .

(٣) واختلفوا في الثورة عليه ، وفي قتله ، فقال قوم ظلماً وعدواناً ، وقال آخرون : بخلاف ذلك.

سابعاً : وبعد أن بويع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ اختلف الناس في خروج طلحة والزبير وحربهما عليه .

وكذا اختلفوا في حرب معاوية مع علي بن أبي طالب ، حيث ساند بعض الصحابة معاوية ، بينما نرى أن معظم الصحابة ساندوا علي بن أبي طالب ﷺ .

واختلفوا في التحكيم ، وفي مخالفة الخوارج له (علي بن أبي طالب) وخروجهم عن طاعته ومناصبتهم العداء له .

وفي هذا العهد ظهر خلاف الشيعة ، سيما الغلاة منهم ، حيث تجاوزوا الحد في تقديسه حتى اعتقدوا أنه إله الخلق ، مما حمله على قتلهم وتحريق بعضهم بالنار .

مما مضى كانت جل الخلافات التي حصلت بين المسلمين في هذا العهد ، وتبين لنا أنها كانت خلافات حول مسائل فرعية عملية ، ولكن بعض منها كالخلافة أصبحت أساساً للخلافات عقدية ، وسبباً في نشوء الفرق الكلامية كالخوارج والشيعة .

أمّا العقيدة فلم يحدثنا المصادر عن وقوع خلاف بينهم في شيء منها ، وكان منهجهم في تقرير وإثبات العقائد الإيمانية قائماً على النقل من القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة في معظم الأحوال .

ولهذا فلم يلجاء الصحابة الكرام في هذا العهد إلى البحث والنظر وممارسة الحوار والجدل إلاّ في مقام دعوة الخصوم وصرفهم عن عقائدهم الفاسدة .

ومن الأمثلة التي تبين أن الصحابة لم يخوضوا في المسائل العقدية إلاّ في مقام الدعوة ، قول أبي بكر الصديق ﷺ في تقرير مخالفة الله تعالى عن الحوادث ، قوله : { العجز عن درك الإدراك إدراك } .

وقد شرح الإسفراييني قول الصديق بقوله : " إذا صح عندك أن الصانع لا يمكن معرفته بالتصوير والتركيب والقياس على الخلق ، صح عندك أنه خلاف المخلوقات " .

وأما عمر بن الخطاب ﷺ فانه أيضاً تعرض إلى ممارسة المسائل العقدية مع قس (برقشت) في باب القضاء والقدر ، إذ كان قائماً يخطب للناس بالجابية ، فقال في خطبته : { فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } ، فقال القس ما يقول

أميركم هذا ؟ قالوا : { فإنّ الله يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } ، فقال القس : الله أعدل من ان يضل أحداً ، فبلغ عمر ذلك ، فبعث إليه فقال له : " بل أضلك الله ، لولا عهدك لضربت عنقك".

وكذا أبا موسى الأشعري ﷺ وقع في هذا الصدد مع بعض القدرية ، فقد ناظر القائلين الذين كانوا يفشون بين الناس مقالات بقصد إشاعة الفتن بين الناس ، فكانوا يقولون : كيف يُقَدِّر عليّ شيئاً ثم يعذّبني عليه ؟ ، فاجابهم : قدّر حيث علم ، وعذّب حيث لم يظلم .

وتجدر الإشارة إلى أن علي بن أبي طالب ﷺ كان أكثر الصحابة لجوءً إلى المناظرة والجدل في العقيدة ، ويمكن إرجاع ذلك إلى الأسباب الآتية :

(١) إنه كان من أكثر الصحابة مشاركة في توجيه الأحداث ومتابعتها .

(٢) كان ﷺ من أبرز الصحابة الذين امتد بهم العمر إلى مرحلة دخول المجتمع الإسلامي في طور جديد خطير .

(٣) أنه الشخصية الكبرى التي اتخذتها الفتنة الإسلامية لها .

ولهذه الأسباب أثر عنه طائفة كبيرة من الآراء في أدق مسائل العقدية ـ في ذات الله تعالى وصفاته ، وفي القدر .. ـ

وخلاصة القول : ان المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين لم يتركوا النظر في مسائل العقيدة في معرض الإرشاد ، وإنما تركوا التوغل والتكلف في النظر والحوار ، وإنهم ما كانوا يلجؤون إلى شيء منه إلاّ في معرض إثبات عقائد الدين ، ودفع الخصوم المتربصين .

حالة العقائد
في عهد الأمويين

حدث تطور كبير على العقائد في عهد الأمويين، فبرزت مسائل العقدية ومشكلات كثيرة أدت إلى تمزق صف ووحدة المسلمين ، فاحتدم على أثر تلك المسائل الحوار والجدال بين المسلمين .

وفي هذا العهد ولأول مرة اعتمد العلماء في الاستدلال على المسائل العقدية على منهج النظر الفكري والاستدلال العقلي وسيلة لإثبات العقائد وأصول الدين بصورة عامة .

ومن الجدير بالذكر أن أبرز المشكلات التي حصلت وبرزت في هذا العهد والتي كان أكثرها حواراً وجدالاً كانت مسألة : القضاء والقدر التي أثارها معبد الجهني ، ورفع رايتها من بعده غيلان الدمشقي .

ومن ثم برزت مسائل عقدية أخرى والتي لم تقل تأثيرها على المسلمين وعلى الساحة الإسلامية من سابقتها ألا وهي مسألة : خلق القرآن الكريم والصفات الإلهية اللتين أثارهما الجعد بن درهم ، وتولاهما من بعده الجهم بن صفوان .

وظهر في هذا العهد أيضاً مسألة : الكبائر وحكم مرتكبها التي أثارها الخوارج ، وتمتد جذور هذه العقيدة إلى عهد الصحابة الكرام ﷺ .

وتجدر الإشارة إلى أن في أيام المتأخرين من الصحابة الكرام ظهرت بعض المسائل خلاف القدرية ، كالقدر والاستطاعة.

وهذه المسائل أثارها معبد الجهني وغيلان الدمشقي وجعد بن درهم .

وخلاصة القول أنه في هذا العهد ظهر الخلاف بين الفرق الكلامية واحتدم النزاع بينها وكفروا بعضهم بعضاً .

وقد تولدت على غرار تلك الوسائل مسائل عقدية كانت موضع تجادل وتنازع بين الفرق .

ثم افترق المسلمون بسببها إلى فرق .

وظهر علم الكلام على أيدى هذه الفرق لاسيما المعتزلة منهم.

ومما مضى يمكن أن نلخص من هذا العهد نتائج كثيرة ، نذكر منها :

(١) إن النظر العقلي في العقائد الدينية بدأ على أيدي الجهمية والجهنية والقدرية والمعتزلة ، وكان ذلك في نهاية القرن الأول ، وبداية القرن الثاني للهجرة .

(٢) أهم مسألتين سببتا الخلاف والنظر ، هما (الصفات الإلهية) ومسألة (القضاء والقدر) .

(٣) الذين أثاروا هذه المسائل وبحثوا فيها كانوا من الموالي (المسلمون الجدد) الذين تركوا دياناتهم القديمة واعتنقوا الإسلام ، أثر موجة الفتوحات .

(٤) المذاهب السياسية والفرق الدينية التي نبت في العهد السالف ـ عهد الصحابة ـ قد نمت وتميزت شخصيتها الفكرية والعقائدية في هذا العهد .

وأهم هذه الفرق تتمثل بـ :

الشيعة والخوارج، ولكن أيضاً ظهرت فرق دينية جديدة كان أهما : القدرية والجبرية والمرجئة والمعتزلة.

(٥) التدوين والتأليف في مسائل الكلام قد بدأ في هذا العهد ، إلا أنه لم يصل إلينا منه شيء .

ويعتبر ذلك من أهم النتائج التي تذكر في هذا العهد .

حالة العقائد

في عهد العباسيين

يعتبر العهد العباسي العهد الذهبي بالنسبة إلى تدوين العلوم والمعارف الإسلامية بصورة خاصة ، والعلوم بصورة عامة ، ففي هذا العهد ظهر التدوين ، وألفت الرسائل والكتب في علم الكلام .

وكان علماء الفرق وأصحابها يعتكفون في دراسة مسائل علم الكلام ومباحثها ، ومن أبرز من صنف في هذا المجال هو (واصل بن عطاء ت١٣١هـ) صنف كتابه (أصناف المرجئة) و(بين المنزلتين) و(الخطب في التوحيد والعدل) .

ومن الذين برزوا في هذا العهد ، وصنفوا في هذا الصدد (عمرو بن عبيد ت ١٤٢هـ) وله كتاب (الرد على القدرية) .

وأيضاً : (هشام بن الحكم ت ١٩٩هـ) وهو متكلم شيعي ، وله كتب ، منها: كتاب :(الإمامة).

وظهر من جانب أهل السنة علماء أجلاء صنفوا في هذا المجال ، فقد برز في الساحة العالم الجليل (أبو حنيفة ت ١٥٠هـ) وله كتابان منسوبان إليه (الفقه الأكبر) و(العالم والمتعلم) .

ومن الجدير بالذكر أنه راج في هذا العهد منهج النظر العقلي في تقرير المسائل العقدية والدفاع عنها .

وحمل لواء هذا المنهج في هذا العهد ـ المعتزلة ـ وانتصر لهم فيما بعد ـ الشيعة ـ

لذا كانت وجهات النظر بين المدرستين متفقة في كثير من المسائل لاسيما في مسألة الإمامة ، ونفي رؤية الله تعالى ، وخلق القرآن الكريم ، ونفي الجبر عن أفعال العباد ...

ولكن على الرغم من اتفاق الفريقان (الشيعة والمعتزلة) على جملة من المسائل إلاَّ أنهما اختلفا على جملة من القضايا الفكرية والمسائل العقدية ، وخصوصاً فيما يتعلق بصفات الإمام كعصمته وغيبته، ورجعته...

لماذا أصبح المعتزلة هو المذهب السائد بين المذاهب الإسلامية ؟ .

التزامه بالمنهج العقلي ، واعتماده على المنطق والجدل .

حظي بتأييد السلطة السياسية ومساندتها له .

وهذا الأمر أدى إلى إضعاف المذاهب الأخرى ولاسيما الشيعة لاضطهاد السلطة لهم ، والسلفيون لاعتمادهم المنهج النقلي .

لماذا أخذ المعتزلة بالضعف بعد ما كان هو المذهب السائد ؟.

(١)غلو المعتزلة واسرافهم في الاستدلال العقلي.

(٢) اتخاذهم القوة وسيلة لفرض آرائهم الدينية ووجهات نظرهم الفكرية .
(٣) لجوؤهم إلى اضطهاد مخالفهم في المعتقد وخصوصاً أهل السنة .
فهذه الأسباب التي ذكرناها كانت من أهم العوامل التي أدت إلى انقراض المعتزلة .
على أية حال فقد استمرت موجة العداء الفكري للمعتزلة ، وذلك بخروج العالم الجليل أبي الحسن الأشعري(ت ٣٢٤هـ) من صفوف المعتزلة، وقد بالغ في الرد عليهم .
بدأ الأشعري بتأليف الكتب في الرد على مخالفي أهل السنة خصوصاً المعتزلة ، تزلزل من خلالها هيمنة وسلطان الاعتزال .
وقد ساعد في القضاء على المعتزلة بعد أن انتصر للأشعري جملة من أكابر العلماء ، حيث نرى أنهم سلكوا مسلك الأشعري في تقرير المسائل الإيمانية ، منهم : القاضي أبوبكر الباقلاني ، والإسفرايني ، والبغدادي ، والجويني ، والشهرستاني ، والرازي ... فسموا رأي الأشعري بمذهب أهل السنة والجماعة .
ومع ما كان للمدرسة الاشعرية من مكانة في العالم الاسلامي ، فقد استمرت حملة العداء الفكري للنظر العقلي في العقائد في صفوف أهل الحديث وخاصة الحنابلة منهم ممن اشتدوا في الأخذ بالنص ولهذا سموا الحرفيون ، والنصيون ، والنقليون .
وقد بدأت هذه الحرب على علم كلام السني في ثوبه الأشعري أبو اسماعيل الهروي (ت٤٨١هـ) الذي ألف كتاباً في (ذم الكلام وأهله).
ثم تتابعت حملات الحنابلة على علم الكلام من بعد أبو اسماعيل الهروي متمثلة في كتابات ابن قدامة المقدسي (ت٦٢٠هـ) وابن الصلاح الشهرزوري (ت ٦٤٣هـ) وابن تيمية الحراني (ت٧٢٨هـ) وتلميذه ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) .
عمل هؤلاء على أحياء مذهب السلف على طريقة الحنابلة الذي يقوم على أخذ العقائد من الكتاب والسنة فقط ، فقاموا بعنف منهج العقلي الذي كان ينادي به المعتزلة والذي عاش في مدرسة الشيعة.
كما قاوموا منهج الأشاعرة الذي يقوم على تقرير العقائد الايمانية بالبراهين النقلية .

أسباب نشأة الفرق الكلامية

لا شك في أن أسباب ظهور الفرق الإسلامية ترجع إلى أوضاع داخلية، وما يتفرع منها إلى النص الشرعي نفسه، وإلى تفسير بعض النصوص المحتملة لمعنيين من الكتاب والسنة النبوية الشريفة، وكذلك تعود إلى عوامل سياسية وخارجية والاحتكاك بثقافات الدول التي فتحها المسلمون واتصلوا بها.

ويمكن تلخيص أسباب نشوء الفرق داخلياً وخارجياً على النمط الآتي:

أولاً: الأسباب الداخلية: وهي تشمل:

١ـ النزاع على الخلافة:

من الأسباب السياسية التي أدت إلى اختلاف الأمة الإسلامية في تعيين الخليفة التي ظهرت في نظر المسلمين في من يكون أولى الناس بخلافة النبي ﷺ في حكم أمته، وقد انبعث ذلك النوع من الخلاف بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة [١].

وقد اتفق المؤرخون ـ المسلمون والمستشرقون ـ قديماً وحديثاً على أن الخلافة كانت أول مسألة أثيرت وأدت إلى تمزيق وحدة المسلمين فيما بعد، وأن ثغرتها لا زالت غير مسدودة، كما أن الأمة لا زالت تعطي ضريبتها، ولذا فمن الضروري في هذا المقام أن نذكر بعض أقوال علماء المسلمين وغيرهم بهذا الخصوص:

ذهب الإمام أبو الحسن الأشعري إلى أن: "أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد وفاة نبيهم اختلافهم في الإمامة"[٢].

ومن المستشرقين ذهب (البيرنصري) [٣] إلى: "أن أول مشكلة جابهت الإسلام هي مشكلة الخلافة أو بالأحرى الإمامة، وكان البحث فيها سياسياً مصبوغاً بصبغة دينية، وترتب على هذه المشكلة ظهور فرق عدة، أهمها الخوارج، والشيعة، والمرجئة...ثم تحول النزاع إلى مسائل كلامية" [٤].

وعليه فإن الخلاف في الخلافة كان ولا يزال محل الانشقاق المذهبي بين المسلمين، من بين أهل السنة والشيعة والخوارج، وهو خلاف في جوهره سياسي مرتبط بالدين [٥].

ويتضح مما مضى: أن هذا الاختلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار، قد امتد وانعكس أثره في المراحل التي تلت، حتى إن معظم الفرق الغالية [٦] استغلت موضوع الإمامة والاختلاف فيه، وتحركت من خلاله، وفي ظل هذا الخلاف ظهرت حركة الغلو، فقد وجد الغلاة في قضية الإمامة مادة خصبة للعمل بها وتحت اسمها، حتى إن الغلو اعتبر لدى البعض متعلقاً بموضوع الإمامة، ومرتبطاً بها جراء إضفاء صفات مبالغ فيها على الأئمة [٧].

٢ـ الاختلاف في فهم الآيات المتشابهات :

لقد فتحت الآيات المتشابهات المجال أمام المفسرين للنظر فيها وتأويل معانيها، وحاول كل فريق من

---

(١) ينظر: تأريخ المذاهب الإسلامية: ١٦وبحوث فى الملل والنحل: ٥١/١.

(٢) مقالات الإسلاميين: ٣٤/١.

(٣) لم أعثر على ترجمته.

(٤)أهم الفرق الإسلامية والكلامية: ٧.

(٥) ينظر: فى علم الكلام: ١٨.

(٦) الغلاة: هم الذين غالوا فى حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخلقية، وحكموا فيهم بأحكام الإلهية، فشبهوا الأئمة بالإله ، وشبهوا الإله بالخلق، وئنما نشأت شبهاتهم من مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ومذاهب اليهود والنصارى (ينظر: الملل والنحل: ٢٨٨/١).

(٧) ينظر: الغلو والفرق الغالية: ٣٩.

الفرق الإسلامية أن يدعم وجهة نظره بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة التي ساعدت بطبيعتها على نشوء الفرق [١].

وان الآيات المتشابهات آيات مبهمة المعنى تحمل معنيين، أحدهما قريب، والثاني بعيد، فيذهب كل فريق مذهباً حسب ما استقر عنده من دليل غير مذهب صاحبه [٢].

فمثال ذلك أن في القرآن الكريم آيات ظاهرها التجسيم أو التشبيه، وأخرى توحي إلى التنزيه، فمن الآيات التي تشير إلى التشبيه ظاهراً ، آيات الجوارح والثبوت على العرش وغيرها ، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [٣] ، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُوْ الجَلَلِ والإِكْرَامِ ﴾ [٤] ، وقوله تعالى: ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيْهِمْ ﴾ [٥] .

ومن الآيات التي تنزه الله تعالى عن صفات المخلوق قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْرُ ﴾ [٦]، وقوله: ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [٧] .

ولذلك اختلف العلماء في تفسير الآيات المتشابهات، هل يفوض إلى الله تعالى معناها، أو يعلمه العلماء المختصون؟ فقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِيْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَبِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَتٌ فَأَمَّا الَّذِيْنَ فِيْ قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيْلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إِلاّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِيْ العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [٨].

فبهذه الآية الكريمة ثبت ورود المتشابه في القرآن الكريم، وهي سبب في اختلاف العلماء في مواضع المتشابهات، وقد حاول كثيرون من العلماء تأويلها، والوصول إلى إدراك حقيقة معناها، فاختلفوا في التأويل اختلافاً مبيناً، ومنهم من أراد أن يجعل بينها وبينه حجاباً مستوراً، فما كانوا يؤولون بل كانوا يتوقفون [٩] .

٣ـ الاختلاف في فهم أحاديث الرسول ﷺ :

لقد كثر وضع على احاديث رسول الله ﷺ وكان ذلك سبباً من أسباب نشوء الفرق، بعد انتشار الصحابة (رضي الله عنهم) في الأمصار، وتعددت حلقاتهم في المساجد ليَرْوُوا عن النبي ﷺ الأحكام الشرعية، ثم تلقى عنهم التابعون هذه الروايات [١٠] .

غير أن أعداء الإسلام لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام أحاديث المصطفى ﷺ فإنهم أفرغوا فيه سمومهم الفاسدة، فوضعوا آلافاً من الأحاديث الموضوعة، راجين بذلك تشكيك المسلمين في دينهم [١١] .

---

(١)علم الكلام ومدارسه: ٢٥.
(٢)تأريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام: ١٣٨.
(٣) سورة طه ٥..
(٤) سورة الرحمن ٢٧.
(٥) سورة الفتح ١٠.
(٦) سورة الشورى ١١.
(٧) سورة الصافات ١٨٠.
(٨) سورة آل عمران ٧.
(٩) تأريخ المذاهب الإسلامية : ٢٠ وينظر: الغلو والفرق الغالية فى الحضارة الإسلامية: ٢٢ والمدخل ئلى دراسة الأديان والمذاهب: ٧٩/٢.
(١٠) ينظر: علوم الحديث : ابن الصلاح : ١٠٠ وتدريب الراوى : ٣٢٣/١ وعلوم الحديث ومصطلحه : ٢٨٢ وعلوم الحديث : رشدى عليان : ١٠٥ وئعجاز القرآن: ١٤ .
(١١) ينظر: تأويل مختلف الحديث: ٢٤٦ ونشأة الفكر الفلسفى: ٣٥١.

قال الشهرستاني : "إن كثيراً من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، وضعوا أحاديث متعددة في التجسيم والتشبيه، وهي كلها مستمدة من التوراة" [١] .

وهكذا أُدخل في الإسلام كثيرٌ من الإسرائيليات والأساطير في تفسير الكون وبدء الخليقة وأحوال الأمم الماضية، فتأثرت بهم طبقات من المسلمين ممن كتبوا حول المواضيع السالفة [٢] .

ومما يعضد ذلك ما نقل عن ابن أبي العوجاء [٣]، عندما قُبض عليه وأُحضر للقتل، فلما أيقن موته ومفارقة الحياة، قال: لئن قتلتموني فقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة [٤] .

ولهذا فكان الحديث معتركاً متلاحماً وبحراً خضماً لا يعرف السالك فيه مواطن الأمان، فقام أهل الحديث بمجهود كبير في فحص الأحاديث وتوضيح الصادق والكاذب منها عن طريق الرواية، ومنها السند، وعن طريق الدراية، ومنها النقد الباطني للنصوص، فأنشأوا علم مصطلح الحديث [٥] .

٤ـ التعرض للمسائل الغامضة:

إن المسلمين الأوائل لم يخوضوا المسائل الغامضة في القرآن الكريم، بل قبلوها بمدلولها الحرفي، ولكن بعض المتأملين خاطَرَهم الشك فيما لم يفهموه، فراجعوا النظر في النص وتعمقوا فيها، حتى انتهى بهم إلى ضرب من اليقين،وقد نتج هذا التحري إلى ظهور التفكير الفلسفي بين علماء المسلمين وتدوين مسائل العقائد، كمسألة إثبات صفات الله تعالى ونفيها، ومسألة قدرة العبد بجوار قدرة الرب، وغير ذلك من المسائل، ومن الطبعيِّ أن البحث في هذه المسائل، يفتح باباً واسعاً من أبواب الاختلاف، وتباين المسالك ويتجه كلّ اتجاهاً يخالف الآخر [٦].

ثانياً: الأسباب الخارجية:

إن للأسباب والعوامل الخارجية تأثيراً كبيراً في نشوء الفرق، وإن تأثيرها لا يقل عن العوامل الداخلية، وأهم هذه العوامل التي أثرت في نشوء الفرق هي:

الاحتكاك مع الفكر الدخيل واللقاء الثقافي والحضاري:

بعد انتقال النبي الأكرم ﷺ إلى جوار ربه، قام المسلمون بالفتوحات الإسلامية ومكافحة الشرك، والزيغ في الأمم المخالفة للإسلام ، وكانت تلك الأمم ذات حضارة وثقافة في المعارف والعلوم والآداب، وكان بين المسلمين رجال ذوو دراية ورغبة في كسب العلوم وتعلم ما في تلك الحضارات من آداب وفنون ، فأدت هذه الرغبة إلى المذاكرة والمحاورة من جهة، ونقل كتبهم إلى اللغة العربية من جهة أخرى [٧] .

ودخل كثير من أهل الديانات القديمة في الإسلام كاليهود والنصارى والمجوس، وكانوا يحملون أفكارهم من دياناتهم القديمة، فقد سلك هؤلاء الداخلون طريقة التعرف على الحقائق الإسلامية على ضوء معتقداتهم القديمة، فأثاروا بين المسلمين ما كان يثار في دياناتهم من الكلام في صفات الله سبحانه وفي الجبر والاختيار [٨] .

قال ابن حزم : " إن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم ، فلما امتحنوا بزوال

---

(١) الملل والنحل: ١٢/٢.

(٢) ينظر: بحوث فى الملل والنحل: ١٨١/١.

(٣) هو: عبد الكريم بن أبى العوجاء، خال مَعن بن زاجدة، زنديق معتر. (ميزان الاعتدال: ٦٤٤/٢)..

(٤) ينظر: تدريب الراوى : ٣٣٥/١ ، و علوم الحديث ومصطلحه : ٢٨٥ ..

(٥) ينظر: علوم الحديث: ابن الصلاح :١١وتدريب الراوى :١ /٦١ .

(٦)تأريخ المذاهب الإسلامية: ١٩، وينظر: علم الكلام ومدارسه: ٢٣ والمدخل ئلى دراسة الأديان والمذاهب: ٧٨/٢.

(٧)بحوث فى الملل والنحل: ١٠٥/١.

(٨)المدخل ئلى دراسة الأديان والمذاهب: ٧٨/٢، وينظر: تأريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام: ١٢٧.

الدولة عنهم على أيدي العرب ، تعاظمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة ...فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ ، واستشناع ظلم علي ﷺ ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام" [١] .

فيما مضى يتضح أنه من الخطأ أن نرجع أسباب نشأة الفرق إلى مصدر واحد بعينه، بل الصواب هو أن نسلم بتأثير هذه العوامل، جاعلين الصدارة للعامل السياسي الذي دار حول مسألة (الخلافة) وتليها العوامل الداخلية و الخارجية الدخيلة على الإسلام .

أشهر الفِرَقُ الكلامية

اضطربت الأوضاع الداخلية في المجتمع الإسلامي بعد استشهاد أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ ، وازدادت الوضع سوءً وتعقيداً في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ بسبب الفتن التي حدثت ، وتفرق المسلمون وتشتت وحدتهم على إثرها ، مما أدى إلى ظهور الفرق المتمثلة بالخوارج والشيعة ، وفيما يأتي نسلط الضوء على أشهر الفرق الكلامية وكالآتي :

الخَوَارِجُ أُصُلُهُمْ وَفِرَقُهُمْ وَصِفَاتُهُمْ وَالمَسَائِل التي أَجْمَعُوا عَلَيْهَا

أولاً : تَعْرِيْفُ الخَوَارِجِ فِي اللُّغَةِ

(أ) الخوارج لغة : جمع خَارِجِ ، وهو نقيض الدخول ، وخارجي اسم مشتق من الخُرُوجِ ، فيقال : خَرَجَ يَخْرُجُ خُرُوجَاً ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ [٢] ، أي ذلك يوم يخرج الناس من الأجداث [٣].

(ب) تَعْرِيْفُ الخَوَارِجِ فِي الاَصْطِلاَحِ

يطلق اسم الخوارج عند العلماء على تلك الجماعة التي خرجت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، وكل من اقتدى بهم وشاركهم في معتقداتهم ، وسواء كان الخروج على الأئمة الراشدين ، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان [٤] .

ثانياً / أسماؤهم وألقابهم

سميت هذه الفرقة بأسماء وألقاب مختلفة تبعاً لظروفهم وأحوالهم السياسية التي عاشوها ، نذكر بعضاً من أسمائهم كالآتي :

(١) الخوارج اسم لحزب سياسي ، وسموا خوارج لخروجهم عن طاعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وعن طريق الحق [٥] كما يقول الأشعري :" أبوا إلا خلعه وإكفاره بالتحكيم ، وخرجوا عليه ﷺ فسموا خوارج " [٦]وهذا أشهر أسمائهم [١].

---

(١)الفصل فى الملل والأهواء والنحل: ١١٥/٢.
(٢) سورة ق : ٤٢.
(٣) لسان العرب : ٢٤٩/٢ (مادة : خرج) والمعجم الوسيط : ٢٢٥/١ .
(٤) الملل والنحل : ١١٤/١.
(٥) ينظر: الفصل فى الملل والأهواء والنحل : ٩٠/٢ وفكر الخوارج والشيعة : ١١.
(٦) مقالات الإسلاميين : ٤/١ .

(٢) المحكمة الأولى : وهي من أول أسمائهم التي سموا بها ، فسموا بالمحكمة لرفضهم تحكيم الحكمين ، فجاء مصطلح المحكمة من التحكيم [٢] .

(٣) الحرورية : سموا بهذا الاسم نسبة إلى حروراء [٣] التي خرجوا إليها ، وقد اجتمعوا فيها بعد خروجهم من جيش علي بن أبي طالب ﷺ في معركة صفين [٤].

(٤) وسموا بالشراة لأنهم ـ حسب اعتقادهم ـ باعوا أنفسهم لله تعالى .

(٥) النواصب: وأما تسميتهم بالنواصب فلمبالغتهم في نصب العداء لعليّ بن أبي طالبﷺ .

(٦) المارقة : وهذه التسمية أطلقها مخالفهم ، لتنطبق عليهم أحاديث المروق الواردة في الصحيحين [٥].

ثالثاً / أصلهم :

اختلف الدارسون في تحديد أصل الخوارج على آراء متباينة نذكرها كالآتي :

(١) ظهرت بوادر ظهور الخوارج من حيث الاتّجاه والفكرة منذ زمن رسول الله ﷺ، وذلك عندما طعن عبدالله ذو الخويصرة التميمي بقسمة رسول الله ﷺ ، أخرج الشيخان عن أَبَي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ أنه قال : " بَعَثَ عَلِيُّ بن أبي طَالِبٍ ﷺ إلى رسول اللَّهِ ﷺ من الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ في أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لم تُحَصَّلْ من تُرَابِهَا ، قال فَقَسَمَهَا بين أَرْبَعَةِ نَفَرٍ ، فقال رَجُلٌ من أَصْحَابِهِ : كنا نَحْنُ أَحَقَّ بهذا من هَؤُلاءِ ، قال فَبَلَغَ ذلك النبي ﷺ فقال:{ألا تأمنونني وأنا أَمِينُ من في السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً } ؟ ـ قال : فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ[٦]، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ [٧]، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ [٨] ، كَثُّ اللِّحْيَةِ ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ ، مُشَمَّرُ الإِزَارِ، فقال : يا رَسُولَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ !، قال : { وَيْلَكَ أو لست أَحَقَّ أَهْلِ الأرض أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ}؟ ، قال: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ ، فقال خَالِدُ بن الْوَلِيدِ يا رَسُولَ اللَّهِ : ألا أَضْرِبُ عُنُقَهُ ؟ قال:{ لا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي } فقال خَالِدٌ : وَكَمْ من مُصَلٍّ يقول بِلِسَانِهِ ما ليس في قَلْبِهِ ، قال رسول اللَّهِ ﷺ { إني لم أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ قُلُوبِ الناس ، ولا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ } قال : ثُمَّ نَظَرَ إليه وهو مُقَفٍّ فقال :{ إنه يَخْرُجُ من ضِئْضِئِ هذا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ}[٩] .

(٢) وربط ابن كثير أصل الخوارج لخروجهم على الخليفة عثمان بن عفان ﷺ ولأحداثهم الفتنة التي أدت إلى قتله ﷺ ، وسميت تلك الفتنة التي أحدثوها بالفتنة الأولى [١٠] يقول ابن كثير :" وجاء الخوارج فاخذوا مال بيت المال ، وكان فيه شيء كثير جداً " [١١].

(٣) ويرى بعض الباحثين أن الخوارج نبتوا من فرقة السبئية ، فقد وجدت قرائن كثيرة ترجح احتمال أن الخوارج كفرقة سياسية نبتت على يد السبئية ، بدليل القرائن الآتية :

---

(١) ينظر : البرهان فى معرفة عقاچد أهل الأديان : ١١ والخوارج : ٧ .
(٢) ينظر : الخوارج : ٢٠٧ .
(٣) حروراء : قرية تبعد ميلين من الكوفة ينظر : الخوارج : ٢٠٧ .
(٤) ينظر: مقالات الإسلاميين : ١/ ١٢٧ وخطط المقريزى : ٣٥٤/٢ والفرق الإسلامية : ٦٢.
(٥) ينظر : فرق معاصرة : ٢٣١/٢ والخوارج : ٩ .
(٦) غاچر العينين : أى أن عينيه داخلتان فى محاجرهما .
(٧) مشرف : أى بارزهما ، والوجنتان العظمان المشرفان على الخدين .
(٨) ناشز الجبهة : أى أنه يرتفع على ما حوله (ينظر : فتح البارى : ٦٨/٨).
(٩) أخرجه البخارى فى صحيحه : كتاب الأنبياء : ١٥٨١/٤ ، برقم (٤٠٩٤).
(١٠) ينظر: فكر الخوارج والشيعة : ١٢ وأصول وتاريخ الفرق الإسلامية : ٩٧.
(١١) البداية والنهاية : ١٨٩/٧ .

رابعاً / فرقهم

تفرعت من الخوارج فرق عدة ، أوصلها علماء الفرق إلى أكثر من عشرين فرقة ، وفيما يأتي موجز لأهمها :

(١) الإباضيّة : تعد هذه الفرقة أكثر فرق الخوارج اعتدالاً ، وأقربهم إلى أهل السنة منهجاً وتفكيراً[١].
ومن أبرز تعاليمهم أنهم قالوا : الإيمان جميع الطاعات ، فمن ارتكب معصية كبيرة أو صغيرة فهو كافر النعمة، يجب إعلان البراءة منه ، وقطع التعامل معه [٢].

(٢) الأَزَارِقَة : تعد هذه الفرقة من أشد فرق الخوارج تعصباً ، واجتمعت هذه الطائفة على أن من ارتكب كبيرة كَفَر كُفْرَ ملة ، خرج به عن الإسلام جملة ، ويكون مخلّدا في النار مع سائر الكفار [٣] .

(٣) العجاردة : من أهم معتقداتهم تكفير صاحب الكبيرة ، واعتقدوا أن الهجرة فضيلة لا فريضة [٤] .

(٤) الصفرية (الزيادية) حكموا على أصحاب الكبائر بالكفر، غير أنهم لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم ، خلافاً للأزارقة [٥] .

(٥) النجدات (العاذرية): من تعاليمهم : إن الفاسق ليس كافراً خارجاً عن الدين ، بل أنه كافر النعمة [٦] .

خامساً / صفاتهم والأحاديث التي وردت في ذمهم :

اتصف الخوارج بصفات كثيرة، وهذه الصفات قد ميزتهم من بين الفرق الإسلامية، وفيما يأتي بعض أوصافهم كما ذكرتها النصوص الشريفة، وحددها العلماء نذكرها كالآتي:

(١) الغلو في الدين : ذم رسول الله ﷺ الخوارج ، وأخبر بأنهم سيغلون في الدين ، ووصفهم بالزهد والعبادة ... ولكن مع خبث الاعتقاد ، وقلة فهم القرآن الكريم ووعيه ، وأنهم يخرجون عن الإسلام كخروج السهم من الرمية [٧] .

(٢) إعلان السلم مع الكفار ، والحرب على المسلمين : فقد روى أبو سَعِيدٍ ﷺ قال ، قال رسول الله ﷺ {يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ ، لَئِنْ أنا أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ [٨]}[٩].

(٣) صغار الأسنان ، وسفهاء الأحلام : فعن عَلِيّ ﷺ أَنه قَالَ : ، سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول : { يَأْتِي في آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ [١٠] ، سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ ، يَقُولُونَ من خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ ، يَمْرُقُونَ من الإِسْلَامِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ ، لا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، فإن في قَتْلِهِمْ أَجراً لِمَنْ قَتَلَهُمْ يوم الْقِيَامَةِ } [١١] .

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية : ٧٦.
(٢) ينظر : تاريخ المذاهب الإسلامية : ٧٦ ورسالة فى التوحيد والفرق المعاصرة : ٢٠٩ .
(٣) ينظر: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع : ٥١ وشرح المقاصد فى علم الكلام : ٢ / ١٩٣.
(٤) ينظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين:٤٧/١ والبرهان فى معرفة عقاچد أهل الأديان : ١٤.
(٥) ينظر : الفرق بين الفرق : ٧٠ .
(٦) ينظر : التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية : ٤٥/١ والملل والنحل : ١٢٤/١ .
(٧) ينظر : فكر الخوارج والشيعة : ١٦ .
(٨) لأقتلنهم قتل عاد : أى قتلا عاما مستأصلا لا يبقى منهم أحدا ، نُشارة نلى قوله تعالى: {**فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ** } [سورة الحاقة: ٨] ، وفيه الحث على قتالهم . (ينظر : شرح النووى على صحيح مسلم :١٦٢/٧ .
(٩) أخرجه البخارى فى صحيحه : كتاب : الأنبياء : ١٣٢١/٣ ، برقم (٣٤١٥).
(١٠) الأسنان جمع سن، والمراد به العمر ، أى أنهم شباب ، وقوله " سفهاء الأحلام " جمع حلم ، والمراد به العقل ، والمعنى أن عقولهم رديجة (ينظر : فتح البارى : ٢٨٧/١٢).
(١١) أخرجه البخارى فى صحيحه : كتاب : المناقب ، باب : علامات النبوة فى الإسلام : ١٢١٩/٣ ، برقم (٣١٦٦).

(٤) التكفير بالذنوب واستحلال دماء المسلمين وأموالهم : من صفاتهم التي تميزوا بها أنهم كفروا المسلمين بالذنوب والسيئات ... فاستحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، فأعلنوا أن دار الإسلام دار حرب، ودارهم هي دار الإيمان ، ومن خالفهم فقد خرج من الدين في نظرهم [١].

الشِّيْعَةِ نَشْأتُهُمْ وَأُصُلُهُمْ وَفِرَقُهُم

أولاً : تعريف الشِّيْعَة فِي اللُّغَةِ والاصْطِلاَح

(أ) تعريف الشِّيْعَة فِي اللُّغَةِ :

تطلق لفظة الشيعة في اللغة على أتباع الرجل وأنصاره ، يقال : شَايَعَهُ ، [٢] ، وجمعها شِيع [٣] ، يقول الله تعالى :﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ [٤] .

(ب) تعريف ُالشِّيْعَة فِي الاصْطِلاَح

عرفهم ابن حزم بقوله : " ومن وافق الشيعة في أن علياً ً ﷺ أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأحقهم بالإمامة وولده من بعده فهو شيعي ... فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعياً " [٥] .

ومال إلى هذا الرأي من الشيعة الشيخ المفيد ، فقال : " يستحق اسم التشيع ويغلب عليه من دان بإمامة أمير المؤمنين ﷺ وإن ضم إلى ذلك من الاعتقاد ما ينكره كثير من الشيعة ويأباه " [٦] .

ثانياً: نشأة التشيع وأصله:

اختلف المؤرخون والباحثون في نشأة التشيع على أقوال مختلفة ، وفيما يأتي عرض لآرائهم وأدلتهم نذكرها على النمط الآتي:

(١) ذهب الكليني[٧] وابن بابوية [٨] والمجلسي[٩] وطائفة من علماء الشيعة إلى أن التشيع قديم قبل رسالة النبيﷺ ، وأنه ما من نبي إلا وقد عرض عليه الإيمان بولاية علي ، نسب الكليني إلى أبي الحسن رواية أنه قال: " ولاية علي عليه السلام مكتوبة في جميع صحف الأنبياء ، ولن يبعث الله رسولاً إلا بنبوة محمد عليه السلام ، ووصية علي عليه السلام " [١٠].

---

(١) ينظر : أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب : ٦٢٦ .

(٢) ينظر: غريب القرآن : ١/ ٢٩٣ والصحاح : ٥٧٤ ولسان العرب : ١٨٨/٨ (مادة : شيع).

(٣) ينظر: لسان العرب : ٨ / ١٨٨ وتاج العروس : ٣٠٢/٢١ .

(٤) سورة الصافات : ٨٣ .

(٥) الفصل فى الملل والأهواء والنحل : ٩٠/٢ .

(٦) أواجل المقالات: ٣٨ .

(٧) هو : أبو جعفر محمد ابن يعقوب الرازى الكلينى ، شيخ الشيعة وعالمها ، صاحب التصانيف وكان ببغداد ، توفى سنة ٣٢٨هـ (ينظر: سير أعلام النبلاء :٢٨٠/١٥، برقم(١٢٥) .

(٨) هو : محمد بن على بن حسين بن بابويه القمى ، نزل بغداد وحدث بها عن أبيه ، وكان من شيوخ الشيعة ،ومشهورى الرافضة ، توفى سنة ٣٨١ هـ (الأنساب : ٥٤٤/٤) .

(٩) محمد باقر بن محمد تقى بن مقصود على الاصفهانى ، من شيوخ الشيعة ، ولد سنة ١٠٣٧هـ، وتوفى سنة ١١١١ هـ (ينظر: لأعلام : ٦ / ٤٨).

(١٠) الكافى: كتاب : الحجة ، باب : نتف وجوامع من الرواية والولاية :٤٣٧/١ ، ، برقم (٦) وعلل الشراچع ، باب (١٠١) العلة التى من أجلها سمى أولو العزم أولى العزم :١ / ١٢٣ وبحار الأنوار: كتاب النبوة ، الباب (٥٨) فيما قاله بحيراء الراهب لأبى طالب : ٣٨/ ٤٦ ، برقم (٤) .

(٢) ذهب بعض العلماء إلى أن التشيع ظهر في حياة الرسول وأنه ﷺ هو الذي أطلق هذا الاسم على أنصار علي بن أبي طالب ﷺ وأتباعه [١] .

(٣) ويرى البعض أن التشيع بدأ في اليوم الأول من وفاة الرسول ﷺ ونتيجة الاختلاف فيمن يخلف رسول الله ﷺ في إمامة أمته ﷺ [٢] .

(٤) ذهب بعض العلماء إلى أن أصل التشيع ظهر في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ على يد عبد الله بن سبأ اليهودي [٣] ، وبه قال ابن حزم وابن تيمية والمقريزي [٤] .

(٥) وفئة أخرى ترى أن التشيع كحركة سياسية ظهر في أثناء خروج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لقتال طلحة والزبير وعائشة ﷺ [٥] .

(٦) وذهب بعض الباحثين إلى أن الشيعة ظهرت بعد مقتل علي بن أبي طالب ، لأن لفظ الشيعة قد أطلق على العراقيين والشاميين معاً في صحيفة التحكيم [٦] .

(٧) ويرى سامي النشار[٧] والشيبي : بأن مصطلح (الشيعة) ظهر بعد مقتل الحسين بن علي ﷺ على يد حركة التوابين التي ظهرت سنة ٦١ هـ ، وانتهت بالفشل سنة ٦٥هـ[٨].

(٨) ورجح الدكتور عرفان عبدالحميد أن التشيع ظهر بعد القول بالنص والتعيين ، إذ يقول :" التشيع كمذهب فكري وسياسي لم يتكامل بنيانه إلاَّ مع ظهور القول بنظرية النص والتعيين التي أعطت له من المميزات والملامح ما جعله يتخصص ويتميز عن غيره من الاتجاهات والمذاهب " [٩] .

ثالثاً / فرقهم :

انبثقت من الشيعة فرق عدة ، صنفها علماء الفرق في ثلاثة أصناف ، نذكرها فيما يأتي :

(١) الزيدية : أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ [١٠] وسموا بالزيدية نسبة إليه [١١] ، وقد افترقوا عن الإمامية حينما سئل زيد عن أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) ، فترضى عنهما، فرفضه قوم فسموا رافضة [١٢] .

وهولاْ يفضلون علي بن أبي طالب على سائر الصحابة ﷺ ، ولكنهم يقولون بصحة خلافة الشيخين ، والنظر إلى أزواج الرسول ﷺ بأنهن عفيفات طاهرات ، وأنهن أمهات المؤمنين ﷺ [١٣].

(٢) الإمامية الإثنا عشرية : وهم الذين يدعون النص على استخلاف علي بن أبي طالب ، ويتبرأون من الخلفاء قبله ومن عامة الصحابة [١٤] .

---

(١) ينظر: التشيع نشأته معالمه : ٢٦ ونشأة الفكر الفلسفى : ٦٨١/٢ .
(٢) ينظر: التشيع نشأته ، معالمه : ٢٦.
(٣) ينظر: تاريخ المذاهب الإسلامية : ٣٣ والتشيع نشأته معالمه : ٢٦.
(٤) خطط المقريزى : ٢/ ٣٣٤ وينظر : رجال الكشى ، برقم (٨٤) ٨٥ .
(٥) ينظر: دراسات فى الفرق والعقاچد الإسلامية : ١٥ .
(٦) ينظر: دراسات فى الفرق والعقاچد الإسلامية : ١٦ والشيعة الاپنا عشرية : ٤٧.
(٧) ينظر: نشأة الفكر الفلسفى : ٢ / ٦٨٦ .
(٨) ينظر: الصلة بين التصوف والتشيع : ١٢ نقلا عن:دراسات فى الفرق والعقاچد الإسلامية : ١٦.
(٩) ينظر: دراسات فى الفرق والعقاچد الإسلامية : ١٦ .
(١٠) ينظر : الفصل فى الملل والأهواء والنحل : ٧٦/٤ واعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ٥٢ .
(١١) ينظر: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع : ٣٣ والفصل فى الملل والأهواء والنحل : ٧٦/٤ .
(١٢) مقالات الإسلاميين : ١ / ٦٥ وينظر : والفرق بين الفرق : ٢٥ والملل والنحل : ٣٠/١ ٧١.
(١٣) ينظر: الشيعة الاپنا عشرية : ٦١ .
(١٤) ينظر: فكر الخوارج والشيعة : ١١٠ .

وتُعَدُّ الإمامية الاثنا عشرية من أكبر الطوائف الشيعية اليوم ، كما كانت تمثل أكثرية الشيعة وجمهورها في بعض فترات التاريخ ، وهي من أشهر أسمائهم [١] ، ولكنهم لقبوا بألقاب أخرى [٢] كالقطعية [٣] والإمامية [٤] وأصحاب الانتظار[٥] والرافضة ...

(٣) الإسماعيلية (الغلاة) : وسميت بهذا الاسم نسبة إلى زعيمهم إسماعيل بن جعفر [٦] ، فزعموا أن أدوار الإمامة انتهت به ، ثم في ابنه محمد [٧] .

هم الذين غلوا في حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وولده ﷺ ، وادعوا فيهم النبوة والإلهية[٨] ، ومن أشهر فرق الغلاة السبئية [٩] .

وقد تفردت الإسماعيلية بجملة من الآراء العقيدية الفاسدة ، كفرهم بها جمهور العلماء [١٠] .

(٤) القرامطة : حركة باطنية ، سميت بهذا الاسم نسبة إلى حمدان بن قرمط [١١] ، كان أحد دعاتهم في الابتداء [١٢] ، وكانت بداية ظهورهم في عام ٢٧٨ هـ ، وقد اعتمدت هذه الحركة التنظيم السري العسكري ، وكان ظاهرها التشيع لآل البيت ، وحقيقتها الإلحاد ، والإباحية ، وهدم الأخلاق ، والقضاء على الدولة الإسلامية [١٣] ، واستمرت دولتهم حتى سنة ٤٦٦ هـ[١٤] .

(٥) الفاطميون : ترجع نسبة الفرقة الفاطمية إلى أبي محمد عبيد الله [١٥] ، وتلقب بالمهدي ، ثم تلقب بنوه من بعده بألقاب الخلافة المضاف فيها اسم الله كالقائم بأمر الله ، والمنصور بالله ... ، وانتهت ملكهم

---

(١) سموا بالاثنى عشرية لإيمانهم باثنى عشر ئماما بدء بالإمام على بن أبى طالب ﷺ وانتهاء بالإمام المنتظر(ينظر: الفرق بين الفرق : ٤٧ والملل والنحل : ١٦٩/١.

(٢) ينظر : أصل الشيعة وأصولها : ٥٩ وحقيقة الشيعة : محمد بيومى : ٣٩ .

(٣) سموا بالقطعية لأنهم قطعوا على موت موسى بن جعفر الصادق (ينظر: مقالات الإسلاميين ١٧/١ وفرق الشيعة : ٧٩ والملل والنحل : ٢٩/١ ومنهاج السنة النبوية : ٤٧٣/٣) .

(٤) نسبة ئلى مقالتهم باشتراط معرفة الإمام وتعيينه فى الإيمان ، كما يقول الأشعرى :" وهم يدعون الإمامية لقولهم بالنص على ئمامة على بن أبى طالب " (مقالات الإسلاميين : ١٧/١) ، وقد أطلق عليهم المتأخرون من أصحاب الفرق الشيعة هذا الاسم علىهم ، يقول ابن خلدون : " وأما الاثنا عشرية فربما خصوا باسم الإمامية عند المتأخرين منهم "(مقدمة ابن خلدون: ٢٠١) .

(٥) سمى الإمام الرازى الاثنى عشرية بأصحاب الانتظار، وذلك لأنهم يقولون بأن الإمام بعد الحسن العسكرى وولده يرجعان بعد الغيبة (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ٥٥/١) .

(٦) هو : ئسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر، الهاشمى القرشى ، جد الخلفاء الفاطميين ، وئليه نسبة (الإسماعيلية) وهى مىن فرق الشيعة فى الأصل ، وتميزت عن الاثنى عشرية بأن قالت بئمامته بعد أبيه، والاثنا عشرية تقول بئمامة أخيه موسى الكىاظم ، توفى سنة ١٤٣هى (ينظر : لسان الميزان : ١/ ٣٩٧ ، برقم (١٢٥٣) .

(٧) فضاچح الباطنية : ١/ ١٦ والمواقف : ٦٧٦/٣ والشيعة الاثنا عشرية :٦١ رسالة فى التوحيد والفرق المعاصرة : ١٦٤والتبيان فى الفرق والأديان : ٨٢ .

(٨) ينظر : المصدر نفسه : ١١٠ .

(٩) تنظر صفحة : ٥٣ .

(١٠) ينظر : الفصل فى الملل والأهواء والنحل : ٩١/٢ والتبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية : ٣٨وشىرح العقيىدة الأصفهانية : ٢١٤ والتبيان فى الفرق والأديان : ٨٤.

(١١) هو : حمدان بن قرمط ، أو الفرج بن عيمان أو الفرج بن يحيى ، ولقب بقرمط لقصر قامته وساقيه، عرف فى سىواد الكوفة سنة ٢٥٨ هى ، فكان يظهر الزهد والتقشف واستمال ئليه بعض الناس ، فكپر أتباعه والسالكون سبيله ،وىلا تزال بقاياهم ئلى اليوم فى جبل " الكلبية " باللاذقية، وفى " نجران " باليمن، وفى " القطيف " واندمج أكپرهم فىى الإسماعيلية والنصيرية وغيرهما من الطواچف الباطنية ، توفى سنة ٢٩٣هى (الأعلام : ٥ /١٩٤) .

(١٢) ينظر: فضاچح الباطنية : ١ / ١٢ والتبيان فى الفرق والأديان : ٨٨ .

(١٣) ينظر : تلبيس ئبليس : ١٢٦ والبداية والنهاية : ٦١/١١.

(١٤) خيانات الشيعة وأپرها فى هزاچم الأمة الإسلامية : ٤٧ .

(١٥) هو : المهدى الفاطمى عبيدالله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم ، الفاطمى العلوى، من ولد جعفر الصادق ، مؤسس دولة العلويين فى المغرب، فى نسبه خلاف كپير ، توفى سنة ٣٢٢هى (الأعلام : ٤ / ١٩٧) .

بالدولة الأيوبية [١] على يد الملك صلاح الدين الأيوبي الكردي [٢] .

يرى ابن كثير أن الفاطمين كانوا أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً ، وكانوا أيضاً من أجبرهم وأظلمهم، فهم أسوء الملوك سيرة ، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات ، وكثر فيها الفساد [٣] .

(٦) الدروز : الدروز فرقة باطنية ، أسسها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله [٤] سنة ٣٩٥هـ ، وهي تنتسب إلى نشتكين الدرزي[٥] ، نشأ في مصر ، ولكنه هاجر إلى الشام ونشر فكرته فيها ، ودعا إلى أن روح الإله قد حلت في الحاكم ، وألف كتب العقائد الدرزية [٦].

وقد أخذت الدروز جل عقائدها عن الإسماعيلية ، كما أنها تؤمن بسرية أفكارها ، فلا تنشرها على الناس ، ولا تعلمها لأبنائها إلا إذا بلغوا سن الأربعين لحفظ أسرارهم [٧] .

المعتزلة
ظهورهم وأهم تعاليمهم

أولا : ظهورهم:

المعتزلة فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري (٨٠ هـ - ١٣١ هـ) في البصرة (في أواخر العصر الأموي) وقد ازدهرت في العصر العباسي ،وقد لعبت دوراً رئيسياً سواء على المستوى الديني والسياسي ، ولقد غلبت على المعتزلة النزعة العقلية ، لذلك فإنهم قد تطرفوا وغالوا في استخدام العقل وجعلوه حاكماً على النص ، بعكس أهل السنة الذين استخدموا العقل وسيلة لفهم النص وليس حاكماً عليه.

ويعتقد أن أول ظهور للمعتزلة كان في البصرة في العراق ثم انتشرت أفكارهم في مختلف مناطق الدولة الإسلامية كخراسان وترمذ واليمن والجزيرة العربية والكوفة وأرمينيا إضافة إلى بغداد.

وبقي القليل من آثار المعتزلة لقرون ولم يعرف عنه سوى من كتابات آخرين سواء من أشاروا إليهم عبورا أو من عارضوهم ، إلى أن اكتشفت البعثة المصرية في اليمن قبل بضعة عقود أهم كتاب في مذهب

---

(١) ينظر : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا : ٤٤٨/٥.

(٢) هو : يوسف بن أيوب بن شاذى ، أبو المظفر، صلاح الدين الأيوبى ، الملقب بالملك الناصر: من أشهر ملوك الإسلام ، ولد سنة ٥٣٢ هـ ، كان أبوه وأهله من قرية دوين (فى شرقى أذربيجان) وهم بطن من الروادية ، من قبيلة الهذانية من الأكراد ، وكان خليقا للملك شديد الهيبة ومحببا ئلى الأمة ، عالى الهمة ، وكامل السؤدد ، جم المناقب ، ولى السلطنة عشرين سنة ، وتوفى بقلعة دمشق سنة ٥٨٩ هـ (بنظر: البداية والنهاية : ١٢ / ٢٨٨ والعبر فى خبر من غبر ٢٧٠/٤)

(٣) البداية والنهاية : ٢٦٧/١٢ .

(٤) هو : أبو على المنصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمى الملقب بالحاكم بأمر الله ولد سنة ٣٧٥هـ ، وقتل سنة ٤١١هـ.، كان شاذا فى فكره وسلوكه وتصرفاته، شديد القسوة والتناقض والحقد على الناس ،أكبر من القتل والتعذيب من دون أسباب تدعو ئلى ذلك (ينظر: الأعلام : ٣٠٥/٧) .

(٥) هو : محمد بن ئسماعيل الدرزى ، أبو عبد الله : أحد أصحاب الدعوة لتأليه الحاكم بأمر الله العبيدى الفاطمى ، قيل : هو فارسى الأصل ، قدم ئلى مصر فى أواخر سنة ٤٠٧ هـ ، ودخل فى خدمة (الحاكم) وصنف له كتابا قال فيه : ئن روح آدم انتقلت ئلى على بن أبى طالب ومنه ئلى أسلاف الحاكم متقمصة من واحد ئلى آخر حتى انتهت ئلى الحاكم الدرزى الذى ينسب ئليه الدروز ، توفى سنة ٤١١هـ (ينظر : الأعلام : ٦ / ٣٥) .

(٦) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة : ٩٠ / ١ .

(٧) المصدر نفسه : ٩٠ / ١ .

الاعتزال وهو " المغني في أبواب التوحيد والعدل" للقاضي عبد الجبار وله أيضا كتاب شرح الأصول الخمسة.

ثانياً : تأسيسها وسبب تسميتهم بالمعتزلة:

اختلف المؤرخون في بواعث ظهور مذهب المعتزلة ، واتجهت رؤية العلماء إلى اتجاهين :

الاتجاه الأول : سبب ديني :

ذهب أصحاب هذا الاتجاه أن فرقة الاعتزال نشأة بسبب اختلاف في بعض الأحكام الدينية كالحكم على مرتكب الكبيرة ، ويعتقد المؤيدون لهذا الاتجاه أن سبب تسمية تعود إلى الرواية الشائعة في أن أصل الاعتزال واصل بن عطاء عن شيخه الحسن البصري في مجلسه العلمي في الحكم على مرتكب الكبيرة، وكان الحكم أنه ليس بكافر.

فواصل بن عطاء لم ترقه هذه العبارة وقال هو في (منزلة بين منزلتين)، أي لا مؤمن ولا كافر. فبسبب هذه الإجابة اعتزل مجلس الحسن البصري وكوّن لنفسه حلقة دراسية وفق ما يفهم ، ويقال حين ذاك أن الحسن البصري أطلق عبارة (اعْتزَلنا واصل).

فعلى رأي أصحاب هذا الاتجاه أن اسم المعتزلة أطلق عليهم لعدة أسباب :

(١) أنهم اعتزلوا المسلمين بقولهم ب بين المنزلتين.

(٢) أنهم عرفوا بالمعتزلة بعد أن اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري وشكل حقلة خاصة به لقوله ب بين المنزلتين فقال الحسن: (اعتزلنا واصل).

(٣) أو أنهم قالوا بوجوب اعتزال مرتكب الكبيرة ومقاطعته.

الاتجاه الثاني : سبب سياسي :

اختلف أصحاب هذا الاتجاه في دواعي ظهور هذه الفرقة على الرغم من اتفاقهم أن عوامل ظهورها سياسية :

(١) إن ظهور هذه الفرقة سببها ظرف حضاري أو تاريخي ، لأن الإسلام عند نهاية القرن الأول كان قد توسع ودخلت أمم عديدة وشعوب كثيرة في الإسلام ، ودخلت معها ثقافات مختلفة ، ودخلت الفلسفة ، ولم يعد المنهج النصي التقليدي النقلي يفي حاجات المسلمين في جدالهم ، فالمنهج الذي يصلح لذلك هو المنهج العقلي .

(٢) أن الاعتزال نشأ بسبب سياسي حيث أن المعتزلة من شيعة علي رضي الله عنه اعتزلوا الحسن عندما تنازل لمعاوية، أو أنهم وقفوا موقف الحياد بين شيعة علي ومعاوية فاعتزلوا الفريقين.

(٣) ذهب القاضي عبد الجبار الهمذاني ـ مؤرخ المعتزلة ـ إلى أن الاعتزال ليس مذهباً جديداً أو فرقة طارئة أو طائفة أو أمراً مستحدثاً، وإنما هو استمرار لما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته ﷺ .

(٤) إن نشأة الاعتزال كان ثمرة تطور تاريخي لمبادئ فكرية وعقدية وليدة النظر العقلي المجرد في النصوص الدينية .

ثالثاً : تعاليمهم :

(١) اعتمدت المعتزلة على العقل في تأسيس عقائدهم وقدموه على النقل تحت شعار " العقل أول الأدلة "، وقالوا بأن العقل والفطرة السليمة قادران على تمييز الحلال من الحرام بشكل تلقائي، فيما يعرف بـ "التحسين والتقبيح العقليان".

(٢) كانت المعتزلة حذرة من ناحية قبول الأحاديث النبوية الشريفة، وشكوا في قيمتها الثبوتية ، فلم يستخدموها في مصنفاتهم ، إلا في حدود ضيقة ، وذلك بسبب انتشار الوضع والكذب في الحديث في زمانهم .

(٣) الإنسان مسؤول عن كل ما يفعل، وأن مسؤوليته تقتضي أن يكون حرًا في اختيار طريقه وأفعاله ومعتقداته، وإلا فستكون محاسبته على ما لم يكن له خيار فيه، ظلم ، وهذا مما لا يستقيم عندهم مع عدالة الله سبحانه وتعالى .

(٤) يرى المعتزلة أنّ القرآن الكريم هو كلام الله عز وجل، مخلوق له وليس بقديم، وأن وصفه بالقدم فيه إثبات أن مع الله تعالى قديمًا آخر، على اعتبار أن الله هو الوحيد القديم الأزلي، ولم يكن معه أحد قبل بدء الخليقة.

(٥) أنكروا شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته، ورفضوا فكرة أن الله سيتجاوز عن المعاصي والكبائر التي يرتكبها الإنسان كالقتل والسرقة والزنا...

(٦) أنكروا كرامات الأولياء، وقالوا لو ثبتت كرامات الأولياء لأشتبه الولي بالنبي! .

(٧) خالفوا جمهور الفقهاء في مسألة دية المرأة ، فقالوا : إن دية المرأة كديّة الرجل ، وإن نكاح الصغار لا يجوز ، ولا يجيزون السبي.

(٨) نفوا رؤية الله بالأبصار في الجنة، ونفي التشبيه عنه من كلّ وجه، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها .

(٩) أنكروا حد الرجم ، والنسخ في القرآن الكريم ، والإجماع ، والقياس في الأحكام الشرعية.

مناهج البحث في علم الكلام

إن منهج البحث في علم الكلام أو الطريقة التي يعتمدها الباحث في دراسة مسائله وقضاياه، افكاره ونظرياته، يختلف باختلاف وجهات نظر علمائه ومدارسه التي تعرف بالفرق الكلامية في المنهج الذي ينبغي ان يتبع في دراسة وبحث الفكر الديني.

ولاشك أن لكل علم منهج خاص للدراسة والبحث يتلاءم مع موضوع العلم وأدوات المعرفة الخاصة به .

فبعض العلوم تجريبية ، وبعضها عقلية ، وبعضها نقلية وهكذا... وبعضها تدرس في المكتبات والكتب والوثائق والإسناد ، وبعضها تدرس في ساحة الطبيعة ، وبعضها من خلال مشاهدة سلوك الأفراد والمجتمعات ، وبعضها لا يتحصل إلاّ من طريق الوجدان والذوق الباطني، وما إلى ذلك .

ويتلخص هذا في أن للفرق الاسلامية الكلامية خمسة مناهج معتمدة في البحث والدراسة ، نذكرها وكالآتي :

- المنهج النقلي المحض .
- المنهج العقلي المحض .
- ثالثاً : المذهب الأشعري المعتدل بين المعتزلة وأهل الحديث .
- المنهج الذوقي والإشراقي .
- المنهج الحسي والتجريبي (والعلمي بالمعنى الحديث) .

أولاً : المنهج النقلي المحض:

هذا المنهج يمثله الحنابلة والسلفيون في التاريخ فهم الذين حرموا الرأي والنظر في المسائل الدينية، فاقتصروا في تفسير المتون الإسلاميّة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على المعنى اللغوي والحرفي ، وحظروا التأويل ، وعدوا السؤال بدعة ، والكلام والاحتجاج العقلي ابتداعاً وانحيازاً لأهل الأهواء والكلام ، كما أنهم حرموا علم الكلام أيضاً.

إنّ قصارى جهد هؤلاء هو: أنْ يدونوا الأحاديث الخاصة بالمسائل الاعتقادية، وأن يبوبوها ويشرحوا لغاتها المُشْكِلة ويذكروا أسانيدها.

وبلغ بهم الأمر في تحريم علم الكلام والنظر في المسائل الاعتقادية أنْ أفرد ابن قدامة الحنبلي رسالة سماها بـ: (رسالة في تحريم النظر في علم الكلام) . وقال الإمام أحمد بن حنبل :" علماء الكلام زنادقة " [(١)] .

وروي عن الشافعي أنه قال : " حكمي في أصحاب الكلام : أنّ يضربوا بالجريد ، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام " [(٢)] .

ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات بهذا المقدار ، بل قالوا : ما سكت عنه الصحابة . مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم . إلاّ لعلمهم بما يتولد منه من الشر" ولذلك قال النبي ﷺ :"هلك المتنطعون ، هلك المتنطّعون ، هلك المتنطعون " أي المتعمقون في البحث والاستقصاء [(٣)] .

وهؤلاء جوزوا التقليد في المسائل الاعتقادية ، وحرموا النظر ، قال إمام الحرمين : " لم يقل بالتقليد في الأصول إلاّ الحنابلة " [(٤)] .

وقد حرم أصحاب هذا المنهج علم المنطق أيضاً ، ولم يعتبروه أداة للمعرفة، وقالوا : بأن استيعاب علم المنطق وحده لا يكفي للصون عن الخطأ.

ولكن هذا المنهج شهد تحولاً واعتدالاً في العصور المتأخرة على يد أمثال: ابن تيمية الذي وقف موقفاً وسطاً حيال علم الكلام ، فهو لا يحرمه تحريماً باتاً ، بل يجوزه إذا دعت إليه الضرورة ، واستند إلى الأدلة العقلية والشرعية ، وصار سبباً لوضع حد لشبه الملاحدة والزنادقة [(٥)] .

وقد ذهب ابن تيمية أبعد من هذا حين قال بعدم التخالف بين العقل الصريح والنقل الصحيح في كتابه: (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) موافقاً في ذلك ابن رشد في كتابه: (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال). ولكن لابن تيمية مواقف وآراء يوافق فيها جمهور الحنابلة والسلفية .

---

(١) ينظر : التوحيد الخالص ، أو الإسلام والعقل: ٤ . ٢٠.

(٢) ينظر : تحريم النظر في كتب أهل الكلام: ١٧ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه :

(٤) الشامل :

(٥) مجموع الفتاوى ٣: ٣٠٦ .

ثانياً : المنهج العقلي المحض :

يتميز هذا المنهج باعتماده على العقل البشري كأداة للمعرفة ، ويطلق على أتباعه : (أصحاب الرأي) أو(المعتزلة) أيضاً وقد بدأ هذا المنهج في عصرٍ مبكر من تاريخ الإسلام ، ويعتبر المؤسس الأول له (واصل بن عطاء).

وهذا الاتجاه يعطي للعقل البشري دوراً رئيسياً في فهم الدين الإسلامي ، خصوصاً في العقائد ويقدمونه على النقل ، ويرى : أنّ معرفة الله سبحانه ومعرفة صفاته وشرائعه لا تتم إلاّ بالعقل الإنساني .

كانت المعتزلة أتباع مدرسة الرأي في العقائد، وإذا عارضتهم آية أو رواية يؤولونها، وكانوا يقولون بحجية العقل قبل كل شيء حتى قبل النقل، بحجة أنّ الشرع أيضاً يثبت بالعقل، وبه يؤمن الإنسان بربه، ويصدق نبيه، ويلتزم بوعده ووعيده .

وللمعتزلة دور كبير في الوقوف بوجه الهجوم الفكري العنيف المضاد للإسلام في العهد العباسي الأول، وقد مال إليهم الخلفاء من أمثال: المأمون والمعتصم، ولكن سرعان ما انقلب الأمر عليهم في عهد المتوكل .

ثالثاً : المذهب الأشعري المعتدل بين المعتزلة وأهل الحديث :

المذهب الأشعري الذي عليه غالبية أهل السنة- عدا الحنابلة - مذهب معتدل بين المعتزلة وبين أهل الحديث .

إنّ الشيخ أبا الحسن الأشعري كان في بداية أمره معتزلياً، ثم أعلن براءته منهم ورجوعه إلى مذهب الجمهور، وأدلى بذلك في تصريح له على منبر المسجد الجامع بالبصرة ، فهو أراد أنّ ينتصر لأهل الحديث ، لكن بأسلوب المعتزلة، أي: بالاحتجاج والحوار والاستدلال على المنهج العقلي ، ولذلك لا يعتبره المعتزلة تابعاً لمنهجهم ، ولا يعده أهل الحديث منهم ، بل يكفره الاتجاه الأخير لاشتغاله بالكلام .

وقد رأى أصحاب هذا المنهج : أن علم الكلام ضرورة للدفاع عن الدين ، وأنهم لا يسعهم السكوت عن إجابة المسائل المستحدثة حتى ولو لم يتعرض لها الصحابة ﷺ وفى ذلك يقول الإمام أبو حنيفة لما قيل له : " رأيتُ أقواما يقولون لا تدخلن هذه المداخل، فإن أصحاب نبى الله ﷺ لم يدخلوا في شيء من هذه الأمور ، وقد يسعك ما وسعهم " ، فيجيب الإمام أبو حنيفة : " بلى يسعني ما وسعهم لو كنت بمنزلتهم ، وليس بحضرتي مثل الذى كان بحضرتهم ، وقد ابتلينا بمن يطعن علينا ، ويستحل الدماء منا ، فلا يسعنا أن لا نعلن من المخطئ منا والمصيب... فمثل أصحاب النبي ﷺ كقوم ليس بحضرتهم من يقاتلهم ، فلا يتكلفون السلاح ، ونحن قد ابتلينا بمن يطعن علينا " .

رابعاً : المنهج الذوقيّ (الإشراقيّ ، الصوفي) :

هذا المنهج يسلك المسلك الرمزي الذوقي الخاص بالصوفية ، الذي يختلف تماماً عن مسلك المتكلمين القائم على العقليات ، ثم على السمعيات .

والإمام الغزالي من أكبر رواد هذه الطريقة ، فهو يقول : بأن هذا طريق الخاصة ، وما دونه طريق العامة ، ومن لا يفترق عنهم أي : (العامة) سوى أنه يعرف الأدلة ، وليس الاستدلال[1] .

---

(١) إلجام العوام عن علم الكلام : ٦٦ .

ويقول الدكتور أحمد محمود صبحي :" وإذا كان الغزالي قد حرم النظر في حقيقة الذات الإلهية على العامة ، وذلك مالا ينكره أحد عليه ، فإنه أدرج في ضمن العوام : الأدباء والنحاة والمحدثين والفقهاء والمتكلمين ، وجعل التأويل مقصوراً على الراسخين في العلم ، وهم في نظره : الأولياء الغارقون في بحار المعرفة ، المتجردون من دنيا الشهوات " [1] ، ثم توالى من بعد الغزالي التأليف من العلماء المتصوفة في العقائد على المنهج الخاص بهم [2] .

خامساً : المنهج العلميّ (التجريبيّ) :

هذا منهج حديث ، وقد تبع فيه قسم من المفكرين الإسلاميين رواد الفكر الأوربي الحديث ، وله أنصاره ورواده، ويعتبر واحداً من التيارات الفكرية المعاصرة الوافدة من الغرب إلى العالم الإسلامي ، ولهؤلاء رأي خاص في أدوات المعرفة البشرية .

ومن ميزاتهم: الاعتماد التام على الحس والتجربة، وقد رفضوا المنهج العقلي والمنطق الأرسطاطاليسي رفضاً باتاً، وحاولوا البحث عن المعارف العليا والمتافيزيقيا والدين بمناهج مستخدمة في مجال الطبيعة والعلوم التجريبية [3] .

سادساً : المنهج الصالح المطلوب :

إن الأسلوب النقلي الذي استعمله القدامى لم يعد صالحاً اليوم إلا أن يكون لإقناع مسلم وقع في شبهه أو ساورته بعض الشكوك .

وكذلك الأسلوب المعتمد على المنطق الصوري ، فإن عقلية اليوم لم تعد تحتمل هذا المنطق ولا تراه مؤدياً إلى الحقيقة ، وبالتالي لم يعد صالحاً لإقناعها. هناك أسلوب صالح لاستعمالهم اليوم ، وهو :

الأسلوب العلمي :

ولعل هذا الأسلوب هو أكثر ما يحتاج إليه علم الكلام اليوم من الأساليب لتأدية رسالته ، وذلك لأنه أنجع الأساليب لإقناع العقلية الحديثة ، لما عليه هذه العقلية من الاعتداد بالعلم التجريبي ونتائجه .

ومثال ذلك استعمال ما توصل إليه علم الفلك من القوانين الدقيقة الغربية لسير الأجرام السماوية للدلالة على أن ذلك من تدبير صانع ، واستعمال القوانين الرياضية لإبعاد احتمالات الصدفة في خلق الحياة ، واستعمال قوانين الفيزياء في الطاقة والحرارة للاستدلال على أن الكون ليس بأزلي ، وإنما هو مخلوق حادث.

إن هذا الأسلوب يستلزم استعماله اطلاعاً كافياً على النتائج المتجددة في الفكر العلمي ، وعلى ما يحدث من أساليب البحث و طرق التفكير في مختلف نواحي الفكر الإنساني.

ولهذا فإن مهمة إنشاء علم كلام حديث لا يمكن أن يقوم بها متكلمون بالمفهوم القديم ولكن تحتاج إلى تظافر جهود مختلفة.

---

(١) في علم الكلام : ٢ / ٦٠٤ .

(٢)اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر : ١ / ٢٤.

(٣) ينظر : تفسير القرآن الكريم: ١١ / ١٤ وإحياء الفكر الديني في الإسلام : ١٤٧ .

أصول الدين عند الفرق الإسلامية

أصول الدين عند أهل السنة والجماعة

أولاً : الإيمان بالله تعالى :

هو الاعتقاد الجازم بوجود الله تعالى واحدا لا شريك له، والإيمان بأسمائه وصفاته التي وردت في القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية من غير تحريف لمعانيها أو تشبيه لها بصفات خلقه أو تكييف أو تعطيل.

ثانياً : الإيمان بالملائكة :

المقصود من الإيمان بالملائكة هو الاعتقاد الجازم بأن الله خلق الملائكة من نور وهم موجودون، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله القيام بها ، قال تعالى: في سورة البقرة: { لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ}.

ثالثاً : الإيمان بالكتب السماوية :

ومعنى هذا أن نؤمن بالكتب التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله. ومن هذه الكتب ما سماه الله تعالى في القرآن الكريم، ومنها ما لم يسم، قال تعالى في سورة الأعلى:{ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } .

رابعاً : الإيمان بالأنبياء والرسل :

هو الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله وأنبيائه، والإيمان بأن الله عز وجل أرسل رسلا سواهم، وأنبياء لا يعلم عددهم وأسماءهم إلا الله تعالى.

خامساً : الإيمان باليوم الآخر :

ومعناه الإيمان بكل ما أخبرنا به الله عز وجل ورسوله مما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه ونعيمه ، والبعث والحشر والصحف والحساب والميزان والحوض والصراط والشفاعة والجنة والنار، وما أعد الله لأهلهما جميعاً.

سادساً : الإيمان بالقدر خيره وشره :

أن خالق الخير والشر هو الله تعالى فكل ما في الوجود من خير وشر فهو بتقدير الله تعالى. فأن أعمال العباد من خير هي بتقدير الله تعالى ومحبته ورضاه، أما أعمال العباد من شر فهي كذلك بتقدير الله ولكن ليست بمحبته ولا برضاه .

والإيمان بالقدر ركن من أركان الايمان، وقد دلت الادلة من الكتاب والسنة على اثباته وتقريره. فمن الكتاب قوله تعالى :{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } .

وفي السنة فيدل عليه حديث جبريل وسؤاله للنبي ﷺعن أركان الايمان فقال: {الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره }، رواه مسلم .

أصول الدين عند المعتزلة :

أولاً: التوحيد:

قالوا : إن الله عز وجل لا كالأشياء وأنه ليس بجسم ولا عَرَضٍ ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر، بل هو الخالق للجسم والعرض والعنصر والجزء والجوهر، وأن شيئاً من الحواس لا يدركه في الدنيا، ولا في الآخرة، وأنه لا يحصره المكان، ولا تحويه الأقطار، بل هو الذي لم يزل ولا له زمان ولا مكان ولا نهاية ولا حَدّ، وأنه الخالق للأشياء المُبْدِع لها لا من شيء، وأنه القديم، وأن ما سواه محدث.

ثانياً: العدل:

ومعناه: أن اللهّ لا يحبُّ الفساد، ولا يخلق أفعال العباد، بل يفعلون ما أمروا به وَنُهُوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم .

ثالثاً: الوعد والوعيد:

والمقصود به إنفاذ الوعيد في الآخرة على أصحاب الكبائر، وأن الله لا يقبل فيهم شفاعة، ولا يخرج أحدا منهم من النار، فهم كفار خارجون عن الملة مخلدون في نار جهنم.

رابعاً: بين المنزلتين:

وهذا الأصل يوضح حكم الفاسق في الدنيا عند المعتزلة.

يعتقد المعتزلة أن الفاسق في الدنيا لا يسمى مؤمناً بوجه من الوجوه، ولا يسمى كافراً بل هو في منزلة بين هاتين المنزلتين، فإن تاب رجع إلى إيمانه، وإن مات مصراً على فسقه كان من المخلدين في عذاب جهنم.

خامساً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وأما القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو على سائر المؤمنين واجب ، على حسب استطاعتهم في ذلك، بالسيف فما دونه، وإن كان كالجهاد، ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق.

فقرروا وجوب ذلك على المؤمنين؛ نشراً لدعوة الإسلام وهداية للضالين وإرشاداً للغاوين كل بما يستطيع.

فذو البيان ببيانه، والعالم بعلمه، وذو السيف بسيفه وهكذا.

ودليله قوله تعالى : { كُنْتُم خَيرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ تَأمُرونَ بِالمَعْروفِ وَتَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ } .

وأما السُّنَةُ : فقول الرسول ﷺ : { لَيْس لِعَيْنٍ تَرى الله يُعْصى أن تَطْرِفَ حَتَى تغير أو تَنْتَقِل} .

أصول الدين عند الشيعة الإمامية

اتفق جمهور الشيعة الإمامية على أن أصول الدين خمسة ، وهي :

(١) التوحيد .

(٢) العدل .

(٣) النبوة .

(٤) الإمامة .

(٥) المعاد .

التوحيد :

وهو الإيمان بأن الله هو خالق ما في الكون ، المستحق للعبادة ، وهو الذي أوجده من العدم وبيده كل شيء، فالخلق، والرزق والعطاء والمنع، والإماتة، والإحياء، والصحة ، والمرض ، كلها تحت إرادته {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون}.

والحقيقة أن توحيد الله يشتمل على أربعة أقسام هي:

- **توحيد الذات: يعني أن الله واحد لا شريك له.**

- **توحيد الصفات: يعني أن صفات الله هي عين ذاته.**
- **توحيد الأفعال: يعني أن الرزاق والمدبر للكون هو الله وحده.**
- **توحيد العبادة: يعني أن الله هو المستحق الوحيد للعبادة فقط.**

العدل :

إن الله جل جلاله عادل لا يظلم أحدا ولا يفعل ما ينافي الحكمة ، فكل خلق أو رزق أو عطاء أو منع، صدر عنه هو لمصالح، وإن لم نعلم بها .

النبوة :

وهو الايمان بنبوة نبي اخر الزمان الرسول ﷺ واتباعه واجب كما قال الله تعالى {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} .

الإمامة :

تؤمن فرق الشيعة كافة بوجود إمام يرث العلم عن النبي ﷺ وهو المسؤول عن قيادة الأمة الإسلامية بتكليف من الله عز وجل، ففي الاعتقاد الشيعي أن الله لن يترك الأمة الإسلامية بدون قائد مكلف.

المعاد:

إن الله يحيي الإنسان بعد ما مات ليجزي المحسن بما أحسن ويجزي المسيء بما أساء فمن آمن وعمل الصالحات، يجزيه الله بالجنة، ومن كفر وعمل السيئات، يجزيه بجهنم.

أصول الدين التي أجمع عليها الفرق الإسلامية

تبين لنا أن المسلمون مع اختلاف فرقهم قد اتفقوا على بعض أصول الدين ، وقد تبين لنا أنها ثلاثة :

(١) الاعتقاد إجمالاً بوجود الله تعالى وبجميع صفاته الثبوتية الراجعة إلى أنه متصف بجميع صفات الكمال ، وبجميع صفاته السلبية الراجعة إلى انه منزه عن جميع صفات النقص، ولا يلزم الاعتقاد بذلك تفصيلاً .

(٢) الاعتقاد بنبوة سيدنا رسول الله ﷺ ، وأنه صادق فيما بلغه عن الله تعالى أجمالاً.

(٣)الاعتقاد بالبعث والحساب وبالثواب وبالعقاب .

الأصول المختلف فيها بين المسلمين

كانت تلك أصول الدين التي المجمع عليها ، أمَّا ما ذكر من أصول غيرها : فلا تخلو أما تكون راجعة إلى تلكم الأصول ، ولكن بعض الفرق جعلتها أصول مستقلة ، أما لاعتبارات خاصة بها، وأما لورود دليل لديهم ينص على استقلاليتها ، وعدم اندراجها تحت أصل آخر .

(١) الإيمان بالملائكة والكتب السماوية والرسل ، هي أصول مستقلة عند أهل السنة يمكن اندراجها تحت الإيمان بالرسول ﷺ ، لأنها ممَّا جاء به وأخبر عنه .

(٢) الإيمان بالقدر خيره وشره : فهو أصل مذهبي عند أهل السنة ، وهو موجه ضد الجهمية القائلين بالجبر المطلق ، والمعتزلة القائلين بالتفويض والإرادة الإنسانية الحرة .

(٣) العدل الإلهي : هو أصل مستقل عند كل من الشيعة والمعتزلة ، مندرج تحت الأصل الأول (التوحيد).

(٤)الوعد والوعيد : وهو أصل مستقل عند المعتزلة ، فيمكن إرجاعه إلى العدل الذي هو صفة كمال لله تعالى .

(٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : الذي اعتبره المعتزلة أصلاً مستقلاً ، فهو ما علم من الدين بالضرورة من الدين.

(٦) بين المنزلتين : فهو أصل مذهبي عند المعتزلة ، ومعناه أن لمرتكب الكبيرة اسماً بين الاسمين ، وحكماً بين الحكمين ، وهو موجه ضد الخوارج الذين قالوا بكفر مرتكب الكبيرة ، والمرجئة الذين قالوا بإيمانه.

أولاً :حقيقة الإسلام ، الإيمان ، الإحسان

تعريف الإسلام في اللغة والاصطلاح :

(أ) الإسلام لغة : الانقياد والاستسلام والخضوع .

(ب) الإسلام في الاصطلاح : هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك ومعاداة أهله ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [1] .

وأركان الإسلام خمسة بينها رسول الله ﷺ كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان ، وحج بيت الله» .

فالإسلام خمسة أركان كما بيّنها الحديث الشريف، أوّلها قول لا إله إلا الله وأنّ مُحمّداً رسولُ الله، وهي التي تُدخلُ صاحبها في الإسلام وهي كلمةُ التوحيد التي تفصل بين الشرك والإسلام ، فمن قالها فقد عصمَ دينهُ وعقيدتهُ من الكُفر، وكذلك بقيّة الأركان الأخرى من أركان الإسلام هيَ أعمدة الدين الراسخة من انكرَ أيّاً منها فقد كفرَ، فلا يجوز أن نُفرّطَ فيها ولا نُقصّر.

ثانياً: تعريف الإيمان في اللغة والاصطلاح

الإيمان لغة: التصديق والإقرار .

وفي الاصطلاح: اختلف العلماء في تعريف الإيمان في الاصطلاح الشرعي إلى ثلاثة آراء نذكرها وكالآتي:

الرأي الأول: ذهب جمهور المحققين إلى أنه هو التصديق بالجنان .

أما الإقرار باللسان فهو شرط لإجراء الأحكام في الدنيا ، إذ هو عبارة عن دلالته على إيمانه فقط .

ويترتب على هذا : أن من آمن بقلبه ولم يقر بلسانه فإنه مؤمن عند الله تعالى ، ويعامل معاملة الكافر في أحكام الدنيا.

ومن أقر بلسانه ولم يؤمن قلبه فهو كافر عند الله تعالى وتجري عله أحكام المسلم في الدنيا ـ وهو المنافق .

وإلى هذا ذهب الإمام أبو حنيفة وأبو منصور الماتريدي .

واستدلوا بالأدلة الآتية :

(أ) قول الله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ [2] ، وهذ يدل على أن الإيمان موضعه القلب .

(ب) واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ [3] ، فلو كان الإقرار ركناً للإيمان لأصبح المكره المنكر بلسانه كافراً ولا قائل به .

(ت) وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [4].

---

(١) سورة الأنعام : ١٦٣.

(٢) سورة المجادلة : ٢٢.

(٣) سورة النحل : ١٠٦.

(٤) سورة الحجرات : ١٤.

الرأي الثاني : ذهب بعض العلماء إلى أنه التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، وهو رأي أكثر المحققين ، وأختاره فخر الإسلام البزدوي ، والإمام السرخسي ، وبه قال الأشعري .

واستدلوا :

بأن النبي ﷺ وأصحابه كانوا لا يقبلون اسلام أحد ما لم يقر بلسانه ، وينطق بالشهادة ، ولو علموا أنه مؤمن بها في قلبه .

ويناقش استدلالهم هذا :

بأنهم كانوا يشترطون الإقرار باللسان لغرض إجراء أحكام الدنيا فقط ، لا لصحة التصديق فيما بينه وبين الله تعالى .

الرأي الثالث : ذهب آخرون إلى أنه تصديق في الجنان ، وإقرار باللسان ، والعمل بالأركان .

وهؤلاء اختلفوا :

فالمعتزلة والخوارج قالوا الأعمال ركن أساسي في الإيمان ، لأن عندهم من ترك ركنا من أركان الإسلام أو عمل كبيرة فهو كافر وليس بمؤمن .

أما جمهور المتكلمين والمحدثين والفقهاء ونقل عن الشافعي أيضاً : فأنهم اعتبروا الأعمال ركن للأيمان لا لأصل الإيمان ، فعلى هذا أنَّ من ترك العمل فإيمانه ناقص ومن عمل فإيمانه كامل .

وقد استدل جمهور المتكلمين والمحثين بأن الأعمال لها أثر في زيادة الإيمان ونقصانه ، وليس ذلك إلاَّ لكونها ركناً تكميلياً له .

ثالثاً : زيادة الإيمان ونقصانه:

اختلف العلماء في هل أن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي على راين اثنين نذكرها وكالآتي :

الرأي الأول: إن الإيمان يزيد وينقص ، وهو رأي من اعتبر الأعمال ركناً للإيمان الكامل ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى :

(١) قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [١] .

(٢) وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [٢].

(٣) قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [٣].

---

(١) سورة الفتح ٤.

(٢) سورة التوبة : ١٢٤.

(٣) سورة محمد: ١٧.

(٤) روى انس ﷺ عن النبي ﷺ قال : { يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ } [١] .

الرأي الثاني :

إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، وهو قول من لم يجعل الأعمال من ضمن الإيمان ، فقالوا : إن التصديق إذا بلغ حد الجزم والإذعان ، لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان .

واستدلوا على ذلك بما يأتي :

(١) إن الله تعالى قد أطلق الإيمان على من عمل المعاصي في كثير من الآيات ، وهذا دليل على أن الأعمال لا أثر لها في الإيمان .

(٢) إن المراد بالزيادة في الأدلة السابقة يراد بها زيادة ثمرته وآثاره وإشراق نور قلب المتصف به ، فأنها تزداد في الطاعة . وينقص بالمعصية .

(٣) إن الله تعالى عطف العمل على الإيمان ، والعطف دليل المغايرة وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٢] وعلى هذا فالأعمال الصالحة لا تدخل في الإيمان ، فلا تؤثر عليه زيادة ولا نقصاً .

(٤) جعل الإيمان شرطاً لقبول العمل في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [٣] دليل على أن العمل غير الإيمان.

الخلاصة :

إن القول بالأعمال تزيد في الإيمان لا يراد بها أن الأعمال هي جزء أساسي من الإيمان وبزوالها يزول، بل أنه جزء تكميلي ، وأن الإيمان يقوي بقدر ما ينكشف للمسلم من آيات ربه العظمى ، وما يطلع عليه من عجائب خلقه وتدبير كونه واحداث بعض الأمور التي لا يدرك وقوعها الانسان .

وإنه يضعف بقدر ما ابتعد المسلم من ذلك ، فقد روى عبدالله بن عمرو ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : { إن الإيمان ليخلقُ في جوفِ احدِكُم كما يخلقُ الثَّوبَ فاسْألُوا الله تعالى ان يجدِدَ الإيمانَ في قلوبِكُم } [٤] .

رابعاً : الإحسان

الإحسان تعريفه : الإحسان معناه مراقبة الله تعالى في السر والعلن ، مراقبة من يحبه ويخشاه ، ويرجو ثوابه ويخاف عقابه بالمحافظة على الفرائض والنوافل ، واجتناب المحرمات والمكروهات.

---

(١) متفق عليه .

(٢)سورة البقرة : ٢٧٧ .

(٣)سورة النساء : ١٢٤ .

(٤) أخرجه الطبراني في مجمع الزوائد: ١/ ٥٢.

والإحسان أعلى المراتب الدين على الإطلاق ، فهوَ في المرتبة الأولى يأتي بعده الإيمان ومِن ثَمّ الإسلام ، فالشخص الذي وصلَ لمرحلة الإحسان هو شخصٌ قد تعمّقَ اليقينُ في قلبه ، وتمكّن من خلجات صدره ، فهوَ يعيشُ في معيّة الله لأنّ في يقينه أنّ الله يراهُ وبأنّ اللهَ مُطّلعٌ عليه ، وهذا بلا شك من أعظم درجات القُرب من الله تعالى وهوَ الإحسان .

والمحسنون هم السابقون بالخيرات المتنافسون في فضائل الأعمال ، قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [1] .

ومن السنة ما جاء في حديث جبريل عليه السلام انه سأل النبي ﷺ فقال: أخبرني عن الإحسان ، فقال ﷺ :{أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأنَّكَ تَرَاه فَإنْ لَم تَكُنْ تَرَاه فَإنَّه يَراكَ }[2] .

فدل الحديث الشريف إلى أن العبد ينبغي أن يعبد الله على صفة (كأنك تراه) الدالة على استحضار قربه ، وأن العبد بين يدي ربه كأنه يراه ، وهذا مقام المراقبة و المشاهدة يوجب الخشية والخوف والتعظيم .

وقيل: بل إشارة إلى أن من شق عليه أن يعبد الله كأنه يراه ، فليعبد الله على أن الله تعالى يراه ويطلع عليه.

وجاء ذكر مفهوم الإحسان في القرآن الكريم في مواضع عدة ، وهي :

(١) تارة مقرونا بالإيمان : قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [3].

(٢) وتارة بالإسلام : قوله تعالى : ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [4].

(٣) التقوى والعمل الصالح : قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [5].

الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان

فإذا ذكرت هذه الأمور الثلاثة مجتمعة كان لكل واحد منها معنى خاص :

(١) يقصد بالإسلام الأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة ... ، ويقصد بالإيمان الأمور الغيبية كالأيمان بالله تعالى والملائكة ...

(٢) الإيمان والإسلام إذا اجتمعا في آية أو حديث واحد صار بينهما فرق ، يقول الله تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُم ﴾ [6] .

---

(١) سورة النحل: ١٢٨.

(٢) سورة النحل: ١٢٨.

(٣) سورة المائدة : ٩٣ .

(٤) سورة البقرة :١٢٢ .

(٥) سورة يونس : ٢٦ .

(٦) سورة الحجرات : ١٤.

(٣) وإذا انفرد احدهما عن الآخر دخل فيه الآخر ، قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ [1] ، وإذا انفرد الإحسان دخل فيه الإسلام والإيمان .

(٤) إذا اجتمعت الثالثة فالإسلام هو الأعمال الظاهرة ، والإيمان هو أعمال القلب الباطنة ، والإحسان هو عمل خاص من أعمال القلب .

(٥) دائرة الإحسان أعم من دائرة الإيمان ، ودائرة الإيمان أعم من دائرة الإسلام ، فالإحسان أعم من جهة نفسه لأنه يشمل الإيمان ، فلا يصل العبد إلى مرتبة الإحسان إلا إذا حقق الإيمان ، فكل محسن مؤمن ، وليس كل مؤمن محسناً.

الكفر وحكم التكفير

حدد العلماء ضوابط عدة لحد الفاصل بين الكفر والإسلام وحكم التكفير نذكرها وكالآتي :

ذهب أهل السنة والجماعة إلى إن من لم يؤمن بوجود الله تعالى ، أو لم يؤمن بواحدانيته وتنزهه عن المشابهة والحلول والاتحاد ، أو لم يؤمن بتفرده بتدبير الكون والتصرف فيه ، واستحقاق العبادة والتقديس ، واستباح عبادة مخلوق ما من المخلوقات .

أو لم يؤمن بأن لله رسالات إلى خلقه ، وأنزل بها كتبه عن طريق الملائكة .

أو لم يؤمن بما تضمنته الكتب من الرسل ، أو فرق بين الرسل الذين قص علينا فآمن ببعض وكفر ببعض .

أو لم يؤمن بأن الحياة الدنيا تفنى ويعقبها دار أخرى هي دار الجزاء ودار الإقامة الأبدية ، بل اعتقد أن الحياة دائمة لا تنقطع ، أو اعتقد أنها تفنى فناء دائماً لا بعث بعده ، ولا حساب ولا جزاء .

أو لم يؤمن بأن أصول شرع الله تعلى فيما حرم وفيما أوجب ، هي دينه الذي يجب أن يتبع ، فحرم من تلقاء نفسه ما رأى تحريمه ، وأوجب من تلقاء نفسه ما رأى وجوبه ...

من لم يؤمن من هذه الجوانب ، أو حلقة من هذه الحلقات لا يكون مسلماً ، ولا تجري عليه أحكام المسلمين فيما بينهم وبين الله تعالى ، وفيما بينهم بعضهم وبعض .

وليس معنى هذا أن من لم يؤمن بشيء من ذلك يكون كافراً عند الله تعالى يخلد في النار ، وإنما معناه أنه لا تجري عليه أحكام الإسلام ، فلا يطالب بما فرضه الله تعالى على المسلمين من العبادات ، ولا يمنع مما حرمه الإسلام كشرب الخمر ، وأكل الخنزير ، والاتجار بهما ، ولا يغسله المسلمون إذا مات ولا يصلون عليه ، ولا يرثه قريبه المسلم من ماله ، كما لا يرث هو قريبه المسلم إذا مات .

أما الحكم بكفره عند الله تعالى فهو يتوقف على أن يكون إنكاره لتلك العقائد أو لشيء منها ــ بعد أن بلغته على وجهها الصحيح ــ واقتنع بها فيما بينه وبين نفسه ، ولكن أبى أن يعتنقها ويشهد بها عناداً ، واستكباراً ، أو طمعاً في مال زائل أو جاه زائف ... فإذا لم تبلغه تلك العقائد ، أو بلغته بصورة منفرة ، أو بصورة صحيحة ولم يكن من أهل النظر ، أو كان من أهل النظر ولكن لم يوفق إليها ، وظل ينظر ويفكر طلباً للحق ، حتى أدركه الموت في أثناء نظره ــ فإنه لا يكون كافراً يستحق الخلود في النار عند الله تعالى .

ومن هنا كانت الشعوب النائية التي لم تصل إليها عقيدة الإسلام ، أو وصلت إليها بصورة سيئة منفرة ، أو لم يفقهوا حجته مع اجتهادهم في بحثها ــ بمنجاة من العقاب الآخروي للكافرين ، ولا يطلق عليهم اسم الكافر .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩ .

والشرك الذي جاء في القرآن الكريم أن الله لا يغفره ، هو الشرك الناشئ عن العناد والاستكبار ، الذي قال الله تعالى في أصحابه:{ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}[1].

يتضح مما سبق أن المرء لا يعد مسلماً إلاَّ إذا دان بالأصول الآتية :

(١) الاعتقاد إجمالاً بوجود الله تعالى وبجميع صفاته الثبوتية الراجعة إلى أنه متصف بجميع صفات الكمال ، وبجميع صفاته السلبية الراجعة إلى انه منزه عن جميع صفات النقص، ولا يلزم الاعتقاد بذلك تفصيلاً .

(٢) الاعتقاد بنبوة سيدنا رسول الله ﷺ ، وأنه صادق فيما بلغه عن الله تعالى أجمالاً .

(٣)الاعتقاد بالبعث والحساب وبالثواب وبالعقاب .

(٤) أن لا ينكر شيئاً علم من الدين بالضرورة ، كالصلاة ، والزكاة ، والحج، والحجاب... وما إلى ذلك من فروض الدين التي ثبتت بالدليل القطعي من الكتاب والسنة ، فإن هذه الأمور يشترط عدم إنكارها في الإيمان والاسلام ، لا اعتقاد بخصوص كل منها ، وإنما جعلت هذه الأمور شرطاً في الايمان والاسلام لثبوتها بالدليل النقلي ، ولأن انكارها يتنافى مع تصديق النبي ﷺ وصحة شريعته الذي هو معتبر في الايمان .

(٥) وصدق إجمالاً بكل ما صح وجاء به الرسول الكريم ﷺ .

(٦) ويعتبر الإنسان كافراً من لم يعتقد بأحد الأصول التي ذكرناها ، أو أنكر ضرورياً من ضروريات الدين [2] .

---

(١) سورة النمل : ١٤ .

(٢) ينظر : الإسلام عقيدة وشريعة : محمد شلتوت: ٣٦ وأصول الدين الإسلامى : رشدى عليان : .

أدلة وجود الله تعالى

استدل العلماء على وجود الله تعالى بأدلة كثيرة نذكر أهمها كالآتي :

الدليل الأول: دليل الحدوث .

بنى المتكلمون هذا الدليل على مقدمتين الآتيتين :
المقدمة الأولى: العالم حادث .
المقدمة الثانية: كل حادث لابد له من محدث .
النتيجة: العالم لابد له من محدث يُحدثه، أي يرجح وجوده على عدمه، وهو الله تعالى .
ولكي تظهر لنا صحة هذه النتيجة، علينا أن نقيم الدليل على صحة كل من المقدمتين السابقتين:

*** الدليل على أن العالم حادث ***

يمكن صياغة دليل ـ حدوث العالم ـ بالدليلين الآتيين:
أولهما : العالم متغير. وكل متغير حادث = فالعالم حادث.
ثانيهما : العالم متركب من جواهر وأعراض.
وكل من الجواهر والأعراض متغير. = فالعالم متغير .
والأعراض حادثة بدليل :

(أ) مشاهدة تغيرها من وجود إلى العدم، ومن عدم إلى وجود، ومن سكون إلى الحركة، ومن حركة إلى سكون، والتغير علامة الحدوث.

(ب) احتياجها إلى مخصص بوقت حدوثها، دون ما قبله وما بعده، فلابد من مرجح لوقوعها في ذلك الوقت، لأن الترجيح من دون مرجح محال.

(ت) افتقارها إلى جسم يقوم بها.

والجواهر حادثة أيضاً، وذلك:
لأنها ملازمة للأعراض لا تنفصل عنها، فهي لا تخلو عن الحركة والسكون والألوان، والأعراض حادثة كما تقدمنا، وملازم الحادث حادث.
فإذا ثبت أن الجواهر والأعراض حادثة لزم أن يكون العالم المكوِّن منهما حادثاً.
وبناء على ما تقدم تتضح لنا المقدمة الأولى وهي: العالم حادث.

***الدليل على أن كل حادث لا بد له من محدث ***

أنه لو حدث حادث بلا محدث ، للزم أن يترجح وجوده على عدمه بلا مرجح ، وهو مستحيل بالبداهة .
ومعنى الرجحان بلا مرجح هو : أن يكون الشيء جارياً على نسق معين ، ثم يتغير عن نسقه، ويتحول عنه بدون وجود أي مغير .
فأننا لو تركنا كفتي الميزان متساويتين ، لاثقل في احداهما ، وزعمنا أن إحداهما قد ترجحت دون مؤثر خارجي ، كنفخة هواء أو حجر ... لضحك الناس منا .
وعليه فنقول : كان العدم هو المنبسط محل العالم قبل وجوده ، فالعدم أرجح من الوجود لسبقه ، ولكن حين خلق هذا العالم ترجح وجوده على العدم ، فالوجود والعدم أمران متساويان ، وترجيح أحد الأمرين المتساويين على الآخر بلا مرجح مستحيل وباطل بالبداهة .
فالقول بأن العدم قد تحول إلى وجود العالم دون سبب لهذا الوجود ، باطلٌ ومستحيل استحالة صاحب الميزان والمذياع . وبذلك تسلم لنا المقدمة الثانية : إن كل حادث لابد له من محدث .

الدليل الثاني : دليل الوجوب :

مُوجِدُ هذا الكون أما أن يكون : واجباً، أو مستحيلاً، أو ممكناً، لأن كلَّ أمر لابد أن يتصف بواحد من الأمور الثلاثة السابقة ، ولا رابع لها ، لأنها أقسام الحكم العقلي .

(١) فلا يجوز أن يكون مُوجِدُ العالم مستحيلاً .لأن المستحيل لا يتصور وجوده مطلقاً ، فهو عدم محض ، فلا يمكن أن يوجد غيره، إذ أن (فاقد الشيء لا يعطيه) فكيف أن يكون مصدراً للوجود.

(٢) كما لا يجوز أن يكون مُوجِدُ العالم ممكناً. لأن الممكن لا يوجد إلاَّ إذا وجد سبب وجوده، وهذا السبب إن كان ممكناً يحتاج إلى سبب آخر ... وهكذا ، وهذا يلزم من الدَّور والتسلسل ، وكلاهما باطل، فما أدى إليهما فهو باطل، فلزم ألاَّ يكون مُوجِدُ الكون ممكناً .

(٣) ولما ثبت أن مُوجِدُ العالم ليس بمستحيل ولا بممكن ، وجب أن يكون مُوجِدُ العالم واجب الوجد .

وأنه لا يحتاج وجوده إلى سبب، بل هو علة العلل، وسبب وجود العالم .

معنى الدَّور ودليل بطلانه

الدور أن يكون شيئان كل منهما علة للآخر .

كقولنا : زيد أوجد عمراً ، وعمروٌ أوجد زيداً .

فكل من زيد وعمرو ، يتوقف وجود أحدهما على الآخر ، وهو الدور الباطل ، وكل منهما يظل معدوماً حتى يأتي مؤثر خارجي .

سبب بطلان الدَّور

هو أن يستلزم أن يكون كلٌّ واحد منهما ، سابقاً صاحبه ، متأخراً عنه ، في وقت واحد ، وهذا يعني استلزام تقدم الشيء على نفسه ، وهو تناقض .

فعمرو يتوقف على زيد ، وزيد يتوقف على عمرو ، وهذا يعني أن عمراً متوقف على عمرو، بعد حذف الحد الأوسط (زيد) .

زيدٌ أوجد عمراً ، وعمروٌ أوجد زيداً ، وهذا يستلزم تقدم الشيء على نفسه ، أي : يلزم أن يتقدم عمرو على عمرو ، لأنه خالق ومخلوق أو سابق ومسبوق، فيلزم أن يكون عمرو موجوداً قبل أن يوجد، وهذا باطلٌ.

مثال بطلان الدَّور :

وجود البيض متوقف على وجود الدجاج ، وجود الدجاج متوقف على وجود البيض .

فلو فرضنا أن لا وسيلة إلى وجود هذا ولا ذاك إلاَّ عن هذا الطريق فإن من البدهي إن كلاً من الأمرين يظلان معدومين حتى يأتي مؤثر خارجي ، يوجد البيض ويوجد الدجاج ، فينتهي الدور عندئذ.

***معنى التسلسل ودليل بطلانه ***

التسلسل : هو أن يستند الممكن في وجوده إلى علة مؤثرة فيه ، وتنستند تلك العلة المؤثرة إلى علة أخرى مؤثرة فيها ، وهلمَّ جراً إلى ما لا نهاية ومن غير انقطاع .

فالتسلسل يعني : "على زعم أقوال منكري وجود الله تعالى ":

أن المخلوقات متوالدة عن بعضها إلى ما لانهاية ، بحيث يكون كل واحد منها معلولاً لما قبله ، وعلة لما بعده ، دون أن تنبع هذه السلسة من علة واجبة الوجود .

دليل بطلان التسلسل :

أنه يؤدي إلى وجود آلهة لا نهاية لها ، كلٌّ منها يتصف بالحدوث والافتقار والعجز ، وهو باطل ، لأنه مناف لمقام الألوهية من القدرة والغنى المطلق، إذ العاجز الفقير لا يصح أن يكون خالقاً للعالم البديع الاتقان .

مثال بطلان التسلسل :

إذا رأيت رقماً حسابياً طويلاً ، يتراصف إلى جانبه عدد كبير من الأصفار ، فأنك تسرع لتنظر قبل كل شيء إلى الرقم العددي الأول .

وما لم تقع عيناك على ذلك الرقم ، فانك لا تعطي قيمة للأصفار الكثيرة ، ما لم تستند إلى ذلك الرقم ذاتي قبلها. ١

لأن الرقم الذي يملك قيمة ذاتية في داخله، هو الذي يضفي الحياة والقيمة على الأصفار المتسلسلة التي عن يمينه .

فسلسلة الأصفار التي لم تنته إلى رقم عددي هي خالية عن أية قيمة ، وافتراض التسلسل اللانهائي فيها لا يخلق لها أية قيمة .

دليل العناية والاختراع (البرهان العلمي)

هذا الدليل هو أجلى الأدلة على وجود الله تعالى وأوضحها ، وهو الذي ذكره ابن رشد في مناهج الأدلة باسم العناية والاختراع .

وهذا الدليل هو الذي نبه عليه القرآن الكريم ، واعتمده الصحابة الكرام ﷺ ، ويمكن بيانه كالآتي :

الأول : دليل العناية (دليل النظام أو التناسق) :

وهذا الدليل يتضح في عناية الله تعالى بالإنسان، وخلق جميع الموجدات من أجله .

ويبنى هذا الدليل على أصلين :

إن جميع الموجودات التي ههنا (الوجود) موافقة لوجود الإنسان .

إن هذه الموافقة هي (ضرورة) من قبل قاصد لذلك ضرورة ، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق .

والموافقة تحصل باعتبار الليل والنهار ، والشمس والقمر لوجود الانسان ، وكذلك الزمان والمكان الذي هو فيه أيضاً ، والحيوان والنبات ، والجماد ، والامطار ، والانهار ، والبحار ، والنار ، والهواء ....

قال الله تعالى : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ...}.

وكذلك أيضاً تظهر العناية في أعضاء الانسان، وأعضاء الحيوان ، أي : كونها موافقة لحياته ووجوده.

ومن آيات القرآن الكريم التي بينت هذا الدليل قوله تعالى : { تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا، وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا } .

ثانياً: دليل الاختراع :

وهو ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات ، كاختراع الحياة في الجماد ، والادراكات الحسية، والعقل ، ويدخل فيه ، وجود الحيوان كله ، ووجود النبات ، ووجود السماوات ، وهذا الدليل يبنى على أصلين:

(١) إن هذه الموجوادات مخترعة ، فالسماوات مثلاً نعلم من قبل حركتها التي لا تفتر ، أنها مأمورة بالعناية بما ههنا ، ومسخرة لنا. والمسخر المأمور مخترع من قبل غير ضرورة. قال تعالى : { إن الَّذين تَدْعُون مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَه ُ} .

(٢) إن كل مُخْتَرَعٍ فله مُخْتَرِع ، فعلى من أراد معرفة الله حق معرفته ، أن يعرف جواهر الأشياء ، ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات ، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء ، لم يعرف حقيقة الاختراع .

قال تعالى : { أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيءٍ } .

وأما الآيات القرآنية التي جمع بين هذين الدليلين (العناية والاختراع)، فمنها : قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَكُم تَتَقُونَ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشَاً وَالسَّمَاء بِنَاءً ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرِاتِ رِزْقَاً لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادَاً وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ } .

والدليل العلمي :

هو الذي أكد عليه العلماء في العصر الحاضر خاصة، بعد أن اتسع نطاق العلم ، وظهرت المخترعات الحديثة التي كانت سبباً في استكشاف آفاق العلم، والوقف على أسرار الطبيعة .

المصادفة

قال : ((هكسلي)) صاحب نظرية (الصدفة) : إن المصادفة هي التي أوجدت، ودبرت ما في الكون على هذا الشكل .

والجواب : لا بد من التفريق بين أمرين :

(١) خلق الشيء ، وفكرة المصادفة تستبعد منه، لأنه يؤدي إلى الدور الباطل .

(٢) ترتيب الشيء وتركيبه، وهي محل النظر والبحث .

صيغة قانون المصادفة :

" إن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص، بنسبة معكوسة مع عدد الأمكانات المتكافئة المزدحمة".

لكن تطبيق هذا القانون، إنما يتم على المادة غير الحية، فدراسة الاحتمال على ضغط ، أو غاز في وعاء، أو خليط من غازات قد يصح.

ولكن على الخلية والاحياء الأخرى فإنه يقف، ولكي نفهم هذا القانون، وعدم سريانه لابد من أمثلة، منها:

مثال الأول:

يقول الاستاذ كريسي موريسون :

ضع عشرة بنسات مرقمة من ١ ـ ١٠ في كيس ، وابدأ بسحبها ، ترى إن :

فرصة سحب رقم ١ هي بنسبة ١ ـ ١٠ ، لأن كل رقم قد يكون له الحظ بالسحب .

وفرصة سحب رقم ١ ، ٢ متتابعين هي بنسة ١ ـ ١٠٠ .

وفرصة سحب رقم ١ ، ٢ ، ٣ متتابعات هي بنسة ١ ـ ١٠٠٠ .

وفرصة سحب رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ متتابعات هي بنسة ١ ـ ١٠٠٠٠ .

وهكذا ... حتى تصبح فرصة سحب الارقام من ١ ـ ١٠ متوالية ، هي بنسبة ١ إلى ١٠ مليارات .

مثال الثاني:

لو فرضنا أنك تملك عدداً هائلاً من الحروف ، إذا حاولت الآلف المرات سحب حرف بعد حرف من هذه المجامع الكبيرة ، وسطرتها واحداً بعد الآخر ، فهل يظهر لك، مهما تكررت عملية السحب القرآن الكريم ، أو ديوان المتنبي ...

خداع الحواس

لا يمكن الاعتماد على الحواس ، لأنها تخدع صاحبها في كثير من الأحيان ، وأمثلة ذلك كثيرة ، منها :

أولاً : خداع البصر :

(١) العصا المستقيمة المغمورة في الماء تبدو للناظر مكسورة .

(٢) لا ترى العين الزجاجة الصافية ، مع أنها موجودة منظورة .

(٣) لا ترى العين سطور الكتابة التي قربت إليها تقريباً شديداً .

(٤) يقول علماء النفس : إنك لو أدمت النظر إلى نقطة في حائط ، وبعدها نظرت إلى حائط آخر ، ترى النقطة نفسها فيه ، مع أنها لا وجود لها في الحائط الثاني .
(٥) يرى المريض أشباحاً لا يراها غيره .

ثانياً : خداع الأذن :

(١) لا تسمع الآذان الأصوات الخافتة ، كما لاتسمع الأصوات الشديدة ، كصوت الاجرام السماوية ، ومثلها تفجير القنابل السماوية الذرية التي تسمع الأذن منها إلاَّ الصيحة الأولى ، أما الأنفجرات التي تليها ، فلا تسمعها الأذن ، مع أن آلات التسجيل يسجل أرقاماً عالية جداً ، وذلك لأن أوتار كورتي الأذن ، تسمع ذبذبة معينة محدودة، لا تسمع ما دونها ، ولا ما فوقها .
(٢) يسمع المريض أصواتاً ، لايسمعها غيره .

خداع اللمس :

لو وضعت في ثلاث أون ماءً حاراً ، ودافئاً ، وبارداً ، ونقلت يدك من الحار إلى الدافيء ، تجده بارداً ، وإذا نقلتها من الدافيء إلى البارد ، تحسبه بارداً جداً ، وهذا من خداع الحواس .

خداع الذوق :

(١) هناك مواد عديمة الذوق ، فلا تعمل فيها الحاسة .
(٢) إذا تذوقت مادة شديدة الحلاوة، ثم انتقلت بعدها إلى مادة أقل حلاوة من الأولى، تجدها خالية من الحلاوة.
(٣) المريض يحس الماء العذب مراً .
(٤) لا تستطع حاستا اللمس والذوق معرفة الحوامض والمركبات الكيمياوية المحرقة .

هذه الأمثلة وغيرها تبين لنا أن الحواس كثيراً ما تخدع، فلا يصح الاعتماد عليها في كشف الحقائق، لذلك كان العقل هو الحاكم على الحواس.

فكيف يمكن القول: بأن الله تعالى لم يدرك بالحواس ، فلا ينبغي الإيمان به ؟ هذا لا يقوله إلاَّ جاهل لا يملك مسحة من العقل.

سبب الإلحاد

الاعتقاد بوجود الله تعالى ، هو اعتقاد الفطرة التي فطر الناس عليها ، وهو أساس كل جزئية يشتمل عليها الدين الإسلامي .

أما الإلحاد فهو طاريء على الفطرة ، وقد حدد القرآن الكريم أسبابه بما يأتي :

أولاً : الكبر : قال الله تعالى : { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا } سورة الفرقان : ٢٢.

ففي الآية الكريمة بيان : أن الكبر وحده هو الذي دفعهم إلى تصور الحياة هي كل شيء، وليس وراءها إلاَّ العدم .

ثانياً : الانحراف : { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} سورة القصص: ٣٨.

ففي الآية الكريمة بيان : أن الطريق فرعون طريق خاطيء ، دفعه إليه إنحرافه عن الطريق السويِّ ، الذي يعرف به الله سبحانه وتعالى .

ثالثاً : الظلم : { سْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا} سورة النساء : ١٥٣ .

فكلمة (بظلمهم) تبين أن الذي دفعهم إلى أن يطلبوا مثل هذا الطلب ، هو الظلم ، ظلم النفوس للحق ، إذ تعرفه وتنكر له .

وهذا الظلم غير (غير العدل) هو الذي دفع الكفار إلى إتهام المؤمنين بالله بأنهم: متوهمون، وكاذبون، وعاطفيون ... وهذا ما نراه اليوم من اتهاماتهم بأنهم غير علمين، غير صادقين، مشوشون، مخدوعون.

رابعاً : الجهل : { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } سورة البقرة : ١١٨ .

ففي الآية بيان أن هذا القول كلام جهال غير عالمين، وأنه ليس بجديد، بل هو متعلق الكافرين دائماً، تشابه قلوبهم، وقررت أن الطريق إلى الله تعالى وآياته الدالة عليه.

صفات الله تعالى

قسم علماء الكلام الصفات الالهية إلى ما يأتي :

أولاً : الصفة النفسية .

ثانياً : الصفات السلبية.

ثالثاً : صفات المعاني .

الصفة النفسية : وجود الله تعالى

عرفها سعدالدين التفتازاني بأنها :" صفة ثبوتية ، يدل الوصف بها على نفس الذات ، دون زائد عليها " .

شرح التعريف :

(صفة) جنس يدخل فيه سائر الصفات .

(ثبوتية) نسبة إلى الثبوت ، لكونها ثابتة في الذهن ، فتخرج الصفات السلبية كالقدم، والبقاء ...

(على نفس الذات) :

أي أنها لا تدل على شيء زائد على الذات ، فالذات نفسها لا تتعقل إلاَّ بوجودها ، ولذلك سميت نفسية.

الصفات السلبية

قسم علماء الكلام : الصفات السلبية إلى خمس ، وهي :

القدم ، والبقاء ، والمخالفة الحوادث ، والقيام بالنفس ، والوحدانية .

ليس المراد بالصفات السلبية ، أنها مسلوبة عن الله تعالى ومنفية عنه ، وإلاَّ لزم أن يثبت لله تعالى الحدوث، وممثالة للحوادث.

بل المراد بكونها سلبية: إن كلَّ واحدة سلبت (نفت) أمراً لا يليق به تعالى .

فالقدم سلب لأولية الوجود.

والبقاء سلب لأخرية الوجود ... وهكذا.

والحق أن الصفات السلبية لا تنحصر في هذه الخمسة، إذ من جملتها: أنه لا ولد، ولا زوجة، ولا بسيطاً، ولا مركباً، وغير ذلك، وإنما اقتصر على هذه الخمسة ، لأنها أمهاتها .

أولاً : القِدَم :

القدم في حقه تعالى بمعنى الأزلية ، التي هي كون وجوده غير مستفتح ، فليس معناه تطاول الزمن ، فإن ذلك وصف الحادثات. أو بعبارة أخرى:

معنى القدم : هو أن وجود الله تعالى غير مسبوق بالعدم، فالله ليس له بداية. وضد القدم : الحدوث .

الدليل العقلي على قِدمهِ تعالى : إن الله تعالى لو لم يكن قديماً لكان حادثاً ، إذ لاوسط بينهما ، ولو كان حادثاً لاحتاج إلى محدث يحدثه ، ومحدثه يحتاج إلى محدث آخر ... وهكذا، فيلزم الدور أو التسلسل، وكل منهما محال، فوجب أن يكون قديماً.

الدليل النقلي على قِدَمِه تعالى: قوله تعالى : (الأول) في الآية الكريمة :{هو الأوَّلُ والآخِرُ} .

تصور صفة القدم :

من السهل على الإنسان أن يفهم صفة الرحمة والعدل والجلال ... في ذات الله تعالى ، لأنه يفهم آثارها ، ويستطع أن يدرك معانيها في الحياة بحواسه ، إلاَّ أنه يستحيل عليه أن يدرك صفة القدم أو صفة البقاء ، لأنه لايحتفظ بصورة لها في الحياة ، لأنها خاصة بذات الله تعالى .

لكن لا تعني الاستحالة الخيالية انكار هاتين الصفتين ، لأن العقل يجزم بثبوتهما.

ثانياً : البقاء :

ومعناه: إن الله تعالى أبدي ، ليس لوجوده آخر، فيستحيل أن يلحقه العدم والفناء .

وضد البقاء: الفناء .

الدليل العقلي على بقائه تعالى : لو لم يكن الله تعالى باقياً، لكان فانياً، ولو كان فانياً لكان حادثا ، ولو كان حادثاً لاحتاج إلى محدث، ومحدثه إلى محدث... وهكذا فيلزم الدور أو التسلسل وكلاهما باطل فثبت بقائه تعالى.

لو جاز تعالى عليه العدم لاستحال عليه القدم، وهو باطل لثبوت قدمه تعالى .

لو جاز عليه العدم لاحتاج انعدامه بعد وجوده إلى علة (استحالة ترجيح بلا مرجح).

الدليل النقلي على صفة البقاء :

قوله تعالى : { الآخر } في الآية الكريمة:{هو الأوَّلُ والأخِرُ والظاهِرُ والباطنُ وَهُوَ بِكلِّ شيءٍ عليمٌ} .

وقوله تعالى : { كُلُّ من عَلَيْهَا فانٍ ، ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلاَلِ والإكْرَام} .

ثالثاً : المخالفة للحوادث :

ومعناه : إن الله تعالى ليس مماثلاً لشيء من الحوادث الموجودة والمعدومة مطلقاً ، فهي عبارة عن: سلب الجرمية، والعرضية، والكلية، والجزئية، ولوازمها عنه تعالى .

فلازم الجرمية هو التحيز، ولازم العرضية هو القيام بالغير، ولازم الكلية هو الكبر، ولازم الجزئية هو الصغر .

وضدها : أي ضد المخالفة للحوادث ، المماثلة للحوادث .

الدليل العقلي على ذلك :أنه تعالى لو لم يكن الله تعالى مخالفاً للحوادث لكان مماثلاً ، ولو كان مماثلاً للحوادث ، لكان حادثاً مثلها ، ولو كان حادثاً لاحتاج إلى محدث ، ومحدثه إلى محدث... وهكذت فيلزم الدور أو التسلسل ، وكلاهما باطل ، فثبت مخالفته للحوادث تعالى .

كل من وجب له القدم ، استحال عليه العدم ، ولاشيء من الحوادث يستحيل عليه العدم ، فلا شيء منها بقديم ، فثبت مخالفته للحوادث .

الدليل النقلي : قوله تعالى : {ليسَ كَمثلِهِ شيءٌ}.

ونفي المماثلة تفيد الأمور التالية :

(١) أنه تعالى ليس بعرض ، لما يأتي :

(أ) لأن العرض يحتاج إلى جسم يقوم به ، فيستحيل وجود العرض قبل الجسم ، وقد ثبت أن الله تعالى موجده.
(ب)لأن احتياجه إلى شيء يقوم به علامة الحدوث.
(٢) وليس بجوهر :
(أ) لأنه ملازم للعرض ، والعرض حادث، فيلزم حدوثه .
(ب)لأنه يوهم التركيب والتحييز .
(٣) وليس بجسم :
لأن الجسم مؤلف من جواهر وأعراض ، وقد ثبت حدوثهما فيما تقدم ، وذلك خلافاً :
للمجسمة : الذين قالوا بأنه تعالى جسم حقيقة ، لكنهم اختلفوا :
فقال بعضهم : هو مركب من لحم ودم . وبعضهم قال : أنه نور يتلألأ كالسبيكة البيضاء .
وقال آخرون : أنه على صورة انسان شاب أمرد.
وبعضهم قال : بل أنه على صورة شيخ أشمط الرأس واللحية ... تعالى عما يقولون كفراً عظيماً .
(٤) وليس له صورة ، أو لون ، أو رائحة أو عوارض النفس من لذة ، وألم ، وفرح ، لأن ذلك من خواص الأجسام.
(٥) ولا يوصف بالصغر أو الكبر : (والكبر يراد به الحسي ، أما المعنوي فيوصف به ،لقوله تعالى:{ وهو العليُّ الكبير}.

النصوص الموهمة للمشابهة

وردت في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة نصوص ، تضيف إلى الباري عز وجل صفات خبرية ، كالاستواء ، والمجيء ، والنزول...
فاختلفوا فيها على أقوال ثلاثة ، مع اتفاق العلماء على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ،وهي:

الأول : التوقف :

ومعنى التوقف ، التوقف الكامل من غير جنوح إلى التأويل ، أو سقوط في التشبيه ، وهو مذهب السلف الصالح ، فهؤلاء آمنوا بهذه الصفات الخبرية ، وأجروها على ظاهرها ، ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل ، لذا قال كثير منهم (اقرؤوها كما جاءت) ، أي : آمنوا بأنها من عند الله تعالى ، ولا تتعرضوا لتأويلها ولا لتفسيرها .
وقد فسر الإمام مالك بن أنس قوله تعالى:{الرحمنُ على العرش استوى}،بقوله :
" الاستواءُ معلومٌ ، ولا يقالُ كيف ، والكيفُ غيرُ معقولٍ ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ".
ومعنى قوله: (الاستواء معلومٌ) معناهُ معلومٌ ورودُهُ في القرآن أي بأنه مستوٍ على عرشِهِ استواءً يليقُ به.
ومعنى : (والكيفُ غير معقولٍ) أي : الشَّكلُ والهيئةُ والجلوسُ والاستقرارُ كمخلوقاته هذا غير معقولٍ ، أي لا يقبلُهُ العقلُ ولا تجوزُ على الله سبحانه وتعالى .

الثاني : التوغل في التشبيه :

فمنهم من شبه في الذات باعتقاد اليد ، والقدم والوجه والعين والساق ... فوقعوا في التجسيم الصريح ، ومخالفة آي التنزيه المطلق.
ومنهم من شبه في الصفات كإثبات الجهة، والاستواء ، والنزول ، والصوت ، والحرف ، وأمثال ذلك ، فآل قولهم إلى التجسيم ، وذلك تمسكاً بالتفسير الحرفي للآيات ، والأحاديث الموهمة للتشبيه والتجسيم .

الثالث: التأويل:

وهو ما ذهب إليه المعتزلة، وأخذ به ـ مع تعديلات طفيفة ـ عامة المسلمين من شيعة ، وماتريدية ، وأشاعرة .

وفي ذلك يقول الإمام الرازي : " جميع الفرق الإسلام مقرون بأنه : لابد من التأويل في بعض ظواهر القرآن والأخبار " .

وذلك لأنه ثبت عندهم بالدليل القطعي ، أنه تعالى منزه عن الجسمية والجهة ، ولا سبيل للقضاء على التشبيه ، إلاَّ إذا أولت الصفات الخبرية الواردة بالنصوص .

وحين رأى العلماء أن فتح باب التأويل له أضراره الجسمية ، وضعوا له القواعد حتى لا يؤدي إلى التلاعب بالنصوص وفق الهوى ، دون الالتفات إلى أصول الشريعة ومقاصدها .

قال شيخ عزالدين بن عبدالسلام :" طريقة التأويل بشرطها ، أقربهما إلى الحق " .

ويعني بشرطها : أن يكون على مقتضى لسان العرب .

رابعاً : القيام بالنفس:

معنى القيام بالنفس شيئان :

أولاً : عدم افتقاره إلى محل . وللمحل تفسيران :

(١) الذات التي يقوم بها ، لا بمعنى المكان ، لأن ذلك علم من مخالفة الحوادث.

(٢) الذات والمكان معاً.

ثانياً : عدم افتقاره إلى المخصص ، أي الموجِد.

وضدها : الاحتياج إلى غيره .

الدليل العقلي على القيام بالنفس :

الدليل على عدم افتقاره إلى مخصص :

أنه لو افتقر إلى مخصص، لكان حادثاً ، كيف وقد سبق وجوب وجوده، وقدمه، وبقائه ، ذاتاً وصفاتاً .

الدليل النقلي على القيام بالنفس :

قول الله تعالى : { يأيُهَا النَّاسُ أنْتُمُ الفُقَراءُ إلى اللهِ ، واللهُ هوَ الغَنيُّ الحَميد} ، وقوله الكريم : { إن الله لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ } .

خامساً : الوحدانية :

معنى الوحدانية : هي : عدم التعدد في الذات ، وعدم التعدد في الصفات ، وعدم التعدد في الأفعال .

فالوحدانية في الذات تنفي (الكم المتصل) الذي هو التركيب ، أي تركب الذات من أجزاء .

وتنفي (الكم المنفصل) الذي هو التعدد ، بحيث يكون هناك الهان فأكثر .

والوحدانية في الصفات : تنفي (الكم المتصل) الذي هو التعدد صفتين من جنس واحد كقدرتين فأكثر .

وتنفي (الكم المنفصل) الذي هو اثبات صفة لغيره تعالى تشبه صفته ، كأن يكون لزيد قدرة يوجد بها ويعدم كقدرته تعالى ، أو ارادة تخصص الشيء ببعض الممكنات .

والوحدانية في الأفعال : تنفي (الكم المنفصل) فقط ، الذي هو اثبات فعل لغيره تعالى على طريق الايجاد والخلق.

وضدها : التعدد في الذات أو الصفات (اتصالاً وانفصالاً) وفي الأفعال (انفصالاً) .

صفات المعاني

وهي سبع :
(١) القدرة .
(٢) الارادة .
(٣) العلم .
(٤) الحياة .
(٥ ـ ٦) السمع ، والبصر .
(٧) الكلام .
ومعنى كونها صفات معان :
إن لكل صفة منها معنى وجودي قائماً بذات الله تعالى .
وسميت ذاتية : لأنها لا تنفك عن الذات .
وهذا القسم هو الذي تنازع فيه المعتزلة والاشاعرة ومن وافقهم .

النزاع في صفات المعاني

اتفق المسلمون جميعاً من فلاسفة ومتكلمين، على أن الله تعالى واحد، يتصف بصفات الكمال الثبوتية الواجبة لذاته تعالى، والتي أطلقها الله تعالى على نفسه، إلاَّ أنهم اختلفوا في تفسير صفات المعاني، على قولين :

الأول : وهو قول جمهور الاشاعرة والماتريدية (أهل السنة والجماعة) ، وهو :

إن الله تعالى سميع بصفة تسمى سمعاً ، وبصير بصفة تسمى بصراً ، وعليم بعلم ، وقدير بقدرة،ومريد بإرادة ، ومتكلم بكلام ، وحي بحياة .

وهذه الصفات :

(١) أزلية ، أي : ليست حادثة ، لأن الله تعالى الواجب الوجود، لا تقوم الحوادث بذاته .
(٢) قائمة بذاته، أي : ليست قائمة بذاتها ، أي : ليست وجوداً خارجياً مستقلاً .
(٣) وهي ليس غير الذات، ولاعين الذات، ولكنها زائدة على الذات (لا هو ولا غيره) .

أي أن كلا من الذات المقدسة وصفاتها لا يتصور انفكاك أحدهما عن الآخر من حيث الوجود، وإن كان مفهوم الذات غير مفهوم الصفة.

وعندئذ لا تؤدي إلى تعدد وكثرة، لأنه لا غيرية بين الصفة والذات، ولا انفكاك بينهما، ولا انتقال .

أدلتهم :

(أ) إن الله تعالى أطلق على نفسه هذه الأسماء في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ، والمفهوم في اللغة من عليم : ذات له علمٌ ، ومن قدير : ذات له قدرة ...

بل يستحيل عند أهل اللغة : عليم بلا علم ، كاستحالة علم بلا معلوم، او كاستحالة عليم بلا معلوم ، فلا يجوز صرفه عن معناه إلا لقاطع عقلي ، ولم يوجد فيه ما يصلح شبهة ، فضلاً عن وجود دليل .

(ب) لو كان العلم نفس الذات، والقدرة نفس الذات، كما قالوا ، لكان العلم نفس القدرة ، فكان المفهوم من العلم والقدرة أمراً واحداً ، وأنه ضروري البطلان ، وكذا الحال في باقي الصفات ، التي ادعي انها عين الذات .

(ج) لو كان علمه ذاته ـ كما قالوا ـ لكان العلم ـ مثلاً ـ واجباً معبوداً ، صانعاً للعالم ، موصوفاً بالكمال .

الثاني: مذهب المعتزلة والفلاسفة والامامية .

أصحاب هذا المذهب نفوا الصفات الزائدة على الذات .

وقالوا : إن الله عالم بالذات بلا علم ، وقادر بالذات بلا قدرة ، وسميع بالذات بلا سمع ... فهم قالوا : إن القديم ذات واحدة قديمة ، ولا يجوز إثبات ذوات قديمة .

واحتجوا على صحة مذهبهم هذا :

إن القول بتعدد القدماء ـ الذات والصفات ـ كفر بالاجماع ، وبه كفرت النصارى حين قالوا : الذات الالهية أقانيم ثلاثة قديمة.

ويمكن مناقشة دليهم هذا :

إن الكفر إثبات ذوات قديمة ، لا اثبات ذات واحدة وصفات قدماء .

ثم إن نفي الصفات يجعل الالوهية فكرة مجردة، لا مضمون فيها ، هي أشبه بالعدم .

قال الرازي : " المشبهة يعبد صنماً ، والمعطِّلَ يعبد عدماً " .

وهذا الاختلاف بين الفرق الاسلامية ينتهي جميعاً إلى القول : بوحدانية الله تعالى ، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به .

إلاَّ أن سياسة المعتزلة أيام المأمون والمعتصم والواثق ، انتهجت سبيل الشدة تجاه مخالفيهم ، فوسعت شقة الخلاف بين الطرفين .

وقال الدواني : " واعلم أن مسألة زيادة الصفات وعدم زيادتها ، ليس من الأصول التي يتعلق بها تكفير أحد الطرفين ... ولا أرى بأساً في اعتقاد أحد طرفي النفي والاثبات في هذه المسألة.

*سبب ظهور مشكلة صفات المعاني *

يوحنا الدمشقي، ولد في دمشق حوالي سنة (٦٧٥م)، وهو من آباء الكنيسة، حفيد منصور بن سرجون رئيس ديوان المالية على عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ ، قاوم نهضة محطمي الصور، ألف في اللاهوت والفلسفة والخطابة والتأريخ والشعر والألحان الدينية، مهد بمؤلفاته إلى نشأة تعليم الفلسفة واللاهوت في أوربا، ترجمت بعض مؤلفاته إلى العربية، منها كتابه (منهل المعرفة) ومات سنة (٧٤٩م). (يُنظَر: المنجد في اللغة والأعلام: ٧٥٣).

اختلف الباحثون في سبب ظهور مشكلة الصفات الالهية على قولين:

أولهما : ظهرت بتأثير أجنبي خارجي ، لكنهم اختلفوا في هذا المصدر على أقوال :

(١) علم الكلام المسيحي : وخاصة عن طريق كتابات القديس يوحنا الدمشقي ، بحجة : التشابه بين الفكرين المسيحي والاسلامي في أكثر من فكرة في معالجة هذه المشكلة ، ويؤيد هذا الرأي :

ما قاله الشهرستاني في صدد الرد على أبي الهذيل العلاف :" وإذا أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وجوها للذات ، فهي بعينها أقانين النصارى " .

(٢) اليهودية بحجة: إن قول المعتزلة:(القرآن مخلوق) مقتبس من قول اليهود (التوراة مخلوقة).

وذكر ابن قتيبة : " أول من قال بخلق القرآن هو المغيرة بن سعد العجلي ، وكان من اتباع عبدالله بن سبأ اليهودي " .

(٣) الفلاسفة : وذلك للصلات الفكرية بين الفلاسفة والمتكلمين ، وخاصة بين المعتزلة وبين الفلسفة اليونانية .

ثانيهما : ظهرت نتيجة حتمية للتطور الفكري داخل الاسلام نفسه، بحجة :

(١) إن المشكلة ظهرت نتيجة النقاش الديني ، الذي دار في صفوف الخوارج حول مرتكب الكبيرة ، الذي جرَّ إلى بحث مشكلة القضاء والقدر، ثم مشكلة الصفات الالهية ...

(٢) التمسك بحرفية الصفات الخبرية الواردة في القرآن الكريم .

وحمل تلك الصفات على معانيها الحقيقية دون المجاز، الذي تطور من مشكلة لغوية إلى فلسفية بمعانيها المصطلح .

تاريخ المشكلة

يقولون إن أول من نفى الصفات الالهية شخصان هما :

الجعد بن درهم ، والجهم بن صفوان ، وقد بنى الجهم فكرته على ركنين هما :

(١)لغوي : قال : المماثلة هي : الاشتراك في الاسم ، وكان يقول : لا أصف الباري تعالى بوصف يجوز إطلاقه على غيره كحي وعالم ومريد ... ولذا أثبت الجهم لله تعالى صفة القدرة والخلق والايجاد ، لأنه لا أحد يوصف بهذا من الخلق .

(٢)فلسفي : كان الجهم جبرياً، فنفى القدرة الانسانية والاستطاعة ، فالانسان مجبر في أفعاله جميعاً .

أولاً : صفة القدرة :

هي صفة أزلية يتأتى بها إيجاد كل ممكن وأعدامه .

وضدها : العجز .

(١)هو أنه تعالى لو لم يتصف بالقدرة ، لكان عاجزاً .

(٢)ولو كان عاجزاً ، لما وجد شيء من هذه الحوادث المحكمة الصنعة المرتبة المتقنة، وعدم وجود شيء من الحوادث باطل بالمشاهدة.

(ب) لو كان الله تعالى عاجزاً ، لكان ناقصاً ، والنقص على الله تعالى محال .

(ج) لو كان الله تعالى عاجزاً ، لكان ناقِصَاً ، ولو كان ناقصاً ، لاحتاج إلى من يكمله ، ومكمله يحتاج إلى مكمل آخر ... وهكذا يلزم الدور والتسلسل ، وكلاهما باطل .

الدليل النقلي :

قوله تعالى :{ إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قَدِير } .

وقوله تعالى :{ وَمَا كانَ اللهُ لِيُعْجِزَه مِنْ شَيءٍ في السَمَاوات ولا في الأرضِ إنَّه كانَ عَلِيْمَاً قَدِيراً } .

ثانياً : صفة الارادة:

صفة أزلية ، تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، من وجود ، أو عدم ، ومقدار ، وزمان ، ومكان ، وجهة .

وضدها : الاكراه .

الدليل العقلي :

(١) الله تعالى صانع العالم بالاختيار ، ومن كان كذلك تجب له الارادة ، فالله تعالى تجب له الارادة .

(٢) لو لم يكن الله تعالى مريداً لكن مكرهاً ، ولو كان مكرهاً لكان عاجزاً ، ولو كان عاجزاً لما وجد شيء من المخلوقات .

وعدم وجود شيء من هذه المخلوقات باطل بالمشاهدة ، فثبت إرادته تعالى .

الدليل النقلي :

(١) قوله تعالى : { فعالٌ لما يريد } .

(٢) وقوله تعالى : { يريدُ اللهُ بكم اليُسْرَ ولا يريد بكمُ العُسْرَ}.

*** الارادة لا تستلزم الرضا ***

ذكر شارح العقيدة الطحاوية أن : الذي عليه أهل السنة والجماعة : إن الله تعالى يريد الكفر من الكافر وشأوه ، ولا يرضاه ، ولا يحبه ، فيشأوه كوناً ، ولا يرضاه ديناً .

وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة ، وزعموا أن الله تعالى شاء الايمان من الكافر ، ولكن الكافر شاء الكفر ، فردوا إلى هذا ، لئلا يقولوا : شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه .

ولكن صاروا كالمستجبر من الرمضاء بالنار، فإنهم هربوا من شيءٍ فوقعوا فيما هو شر منه.

فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى ، فإن الله قد شاء الإيمان منه ـ على حسب قولهم ـ والكافر شاء الكفر .

فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى ، وهذا من أقبح الاعتقاد ، وهو قول لا دليل عليه ، بل هو مخالف للدليل .

ومنشاء الضلال كان من التسوية بين المشيئة والارادة ، وبين المحبة والرضا ، فسوى بينهما الجبرية والقدرية ، ثم اختلفوا :

فقالت الجبرية : الكون كله بقضائه وقدره ، فيكون محبوباً مرضياً .

وقالت القدرية : ليس المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له ، فليست مقدرة ولا مقضية ، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه .

إلآ أن أهل السنة فرقوا بين المشيئة والمحبة، واستدلوا على المشيئة والارادة بأدلة منها :

(١) قوله تعالى:{وما تشاؤونَ إلاَّ أن يشَاءَ اللهُ } .

(٢) قوله تعالى : { مَن يشاءِ اللهُ يُضْلِلْهُ ومَنْ يشاءِ يجعله على صراطٍ مستَقيم } .

(٣) قوله تعالى : { فَمَن يُريدِ اللهُ ان يَهدِيَهُ يَشْرَح صدْرَهُ للإسلامِ ، ومنْ يُردْ أَنْ يُضلَّهُ يَجْعَلْ صَدرَهُ ضَيِّقَاً حَرَجاً كأَنَّمَا يَصَّعَّدُ في السَّمَاء } .

الأدلة على المحبة والرضا:

(١) قوله تعالى : { واللهُ لا يُحِبُّ الفَسَاد} .

(٢) وقوله تعالى : { ولا يَرضى لِعِباده الكُفْرَ} .

(٣) وقوله تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والتكبر : { كلُّ ذلك كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ ربِّكَ مَكْرُوهاً } .

ومن السنة النبوية الشريفة التي تدل على المحبة والرضا :

قول رسول الله ﷺ : { إن الله كرَّه لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال } .

ثالثاً واربعاً : السمع والبصر :

السمع صفة أزلية : شأنها إدراك كل مسموع وإن خفي .

فهي صفة تكشف بها المسموعات من غير آلة، فلا يغرب عن سمعه شيء وإن خفي ، ولا يحجب سَمْعَه بُعْدٌ ، ويسمع من غير أصمخة ، وآذان .

وضدها : الصمم .

البصر : صفة أزلية شأنها إدراك كل مبصر ، وإن لطف .

فهي صفة تنكشف بها المرئيات من غير آلة، فلا يغيب عن بصره مرئيٌ وإن دَقَّ ، ولا يدفع رؤيته ظلام ، ويرى من غير حدقة وأجفان .

وضدها العمى .

فهاتان الصفتان ليستا محدودين ، خلافاً لسمع الانسان وبصره .

الدليل العقلي :

(أ) السمع والبصر صفة الكمال ، وقد اتصف بها المخلوق ، فهو تعالى الأحق بالاتصاف بهما، وإلاَّ لزم أن يكون للمخلوق من صفات الكمال ما ليس للخالق .

(ب) هو أن الله تعالى لو لم يتصف بالسمع والبصر ، لزم أن يتصف بضدهما ، وإذا ثبت اتصافه بضدهما ، كان ذلك نقصاً ، والنقص عليه محال ، فثبت اتصافه بالسمع والبصر .

الدليل النقلي :

(أ) قوله تعالى : { إنَّ الله سميعٌ بَصير} .

(ب) وقوله تعالى : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ وَهوَ السَّميعُ البصيرُ } .

خامساً : العلم :

صفة أزلية ـ تكشف المعلومات عند تعلقها بها.

وضدها : الجهل وما في معناه ، كالظن ، والشك والوهم ، والذهول ، والغفلة ، والنسيان والسهو .

الدليل العقلي :

(أ)الله تعالى فاعل فعلاً متقناً محكماً ، وهذا ظاهر لمن نظر في الآفاق ، والنفس ، والأحياء ، ومن كان فعله متقناً كان عالماً .

لأن من رأى خطاً حسناً يتضمن ألفاظاً عذبة رشيقة ، تدل على معان دقيقة ، علم بالضرورة إن كاتبه عالم .

(ب) لو لم يكن الله عالماً ، لكان جاهلاً ، لما وجد هذا العالم على هذا النظام الدقيق ، الذي يدل على أن خالقه عالم بما تقتضيه مصلحته علماً كاملاً .

(ج) لو كان الله تعالى جاهلاً ، لكان نقصاً ، ولو كان ناقصاً لاحتاج إلى من يكمله ، ومكمله يحتاج إلى مكمل آخر ... وهكذا يلزم الدور أو التسلسل ، وكلاهما باطل .

الدليل النقلي :

(أ) قوله تعالى : { إنَّ الله عليمٌ بذات الصُّدور} .

(ب) قوله تعالى : { وهو بكلِّ شيءٍ عليم } .

(ج) وقوله تعالى : { إنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الغُيوب} .

سادساً : صفة الكلام

الكلام صفة تدل على جميع المعلومات .

وضدها البكم .

الدليل العقلي على ذلك :

هو انه تعالى لو لم يكن متكلماً ، للزم أن يتصف بضده ، واتصافه بضده نقص ، وهو باطل ، لأن النقص لا يرضى به المخلوق ، فكيف بالخالق ؟ فثبت اتصافه بصفة الكلام .

الدليل النقلي على صفة الكلام:

(١) قوله تعالى : { وَكلَّمَ اللهُ موسى تَكْلِيماً }.

(٢) وقوله تعالى : { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاَّوَحْيَاً أو مِنْ وَرَاءِى حِجَابٍ أو يُرسِلَ رَسولاً فيوحيَ بإذنهِ ما يشاءُ إنَّه عليٌ حَكيمٌ}.

اختلف المتكلمون في كلامه تعالى على أقوال :

أولاً : أهل السنة والجماعة : (الأشاعرة والماتريدية) .

قالوا : كلامه تعالى نوعان :

(١) كلام نفسي : وهو الكلام حقيقة ، المعبر عنه بالألفاظ ، ليس من جنس الأصوات والحروف، بل صفة أزلية قائمة بذاته تعالى .

وهو قديم (لامتناع قيام الحوادث بذاته تعالى).

وهو قائم بذاته تعالى.

(٢) كلام لفظي : وهو الحروف والأصوات ، وهذا يقولون بحدوثه ، وعدم قيامه بذاته تعالى ، وهو القرآن الكريم ، وسائر الكتب .

فالقرآن الكريم بمعنى الكلام النفسي ليس بمخلوق ، وأما القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرؤه فهو مخلوق .

ثانياً : المعتزلة والشيعة الامامية :

قالوا كلامه تعالى حروف وأصوات ، ولكنها ليست قائمة بذاته ، وإنما يخلقها الله تعالى في غيره كاللوح المحفوظ أو الملك جبريل أو النبي، وهو حادث .

فالمعتزلة يقولون بحدوث الكلام ، زعماً منهم أن من لوازمه الحروف والاصوات ، وذلك مستحيل على الله تعالى ، فكلام الله تعالى عندهم مخلوق ، لأن الله خلقه في بعض الأجرام .

وحين ذهب المعتزلة إلى هذا الرأي قالوا : القرآن كلام الله مخلوق ، رأوا أن مقالة أهل السنة : بأن القرآن كلام الله غير مخلوق قد يتخذه النصارى حجة أو ذريعة للتشكيك، لحمل المسلمين على اعتقاد : أن المسيح إله أو قديم .

روي يوحنا الدمشقي أنه كان يلقن بعض المسيحين ليجادلوا المسلمين ، فيقول : { إذا سألك المسلم : ما تقول في المسيح ؟ فقل : أنه كلمة الله تعالى .

ثم ليسأل النصراني المسلم : بم سمي المسيح في القرآن ؟ وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجبه المسلم ، لإأنه سيضطر إلى أن يقول : { إنما المسيحُ عيسى بنُ مريمَ رسولُ اللهِ وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه}.

فليسأله عن كلمة الله وروحه ، أمخلوقة هي أم غير مخلوقة ؟ فإن قال مخلوقة ، فليرد عليه : بأن الله كان ولم تكن كلمة ولا روح ، فإن قلت ذلك فسيفحم المسلمُ ، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين}.

ثالثاً : مبتدعة الحنابلة (الغلاة)

قالوا : كلامه تعالى عبارة عن حرف وصوت ، يقومان بذاته تعالى ، وهو قديم ، حتى غلا بعضهم جهلاً ، فقال : الجلد والغلاف قديمان ، فضلاً : عن المصحف.

وهو قول باطل لأن :

حصول كل حرف ووجوده لا يمكن تحققه إلاَّ بعد انقضاء الحرف الذي قبله ، فيكون الحرف الأول منقضياً ، ويكون الذي بعده أول ، وقد علمنا أن ما ينقضي ويتناهى أو يكون له أول ، لا يمكن أن يكون قديماً ، فيكون حادثاً ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث .

سابعاً : الحياة :

صفة أزلية توجب صحة العلم والارادة وباقي الصفات المعاني والمعنوية ، وليس معنى الحياة في حقه تعالى ما يقوله الطبيعي من قوة الحس ولا قوة التغذية ، ولا قوة التابعة للاعتدال النوعي، كما ان حياة الله بلا روح ، بخلاف الحياة فأنها بالروح.

الدليل العقلي :

(أ) لو لم يتصف الله تعالى بالحياة ، لما صح اتصافه بالقدرة والارادة والعلم ، لأنه لا يتصور قيامها بغير حي ، وهو محال .

(ب) الحياة صفة الكمال ، ونقيضها نقص ، والله تعالى منزه عن النقائص .

(ج) اتصافه تعالى بضد الحياة ، لا تجعله واهب الحياة ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

الدليل النقلي :

قوله تعالى :{ اللهُ لا إله إلاَّ هوَ الحيُّ القيومُ } .

قوله تعالى : { هوَ الحيُّ لا إله إلاَّ هوَ فادعوهُ مُخلصين له الدِّين } .

رؤية الله تعالى

اختلفت فرق المسلمين في رؤية الله تعالى في اليوم الآخر على قولين :

القول الأول : تجوز الرؤية : وهو قول جمهور المسلمين ، بدليل النقل والعقل .

قالوا : يرى من غير تكيف بكيفية من الكيفيات المعتبرة في رؤية الأجسام ، ومن غير إحاطة ، بل يحار العبد في العظمة والجلال ، حتى لا يعرف نفسه ، ولا يشعر بمن حوله من الخلائق، فإن العقل يعجز هنالك عن الفهم ، ويتلاهى الكل في جنب عظمة الله تعالى .

ودليله من المنقول :

(١) قوله تعالى: { وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ إلى ربها ناظرة } ناضرة: أي جميلة. وناظرة: من النظر أي الرؤية. ذلك لأن:

(١) النظر: يفيد الرؤية إذا تعدى بـ (إلى) {وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ إلى ربها ناظرة } .

(٢) ويفيد الانتظار إذا تعدى بنفسه ، كقوله تعالى: { يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا}.

(٣) ويفيد معنى التفكر والاعتبار إذا تعدى بفي، مثل : نظرت في الكتاب والأمر.

(٤) ويفيد معنى الرأفة إذا تعدى باللام ، مثل : نظر السلطان لفلان .

(٢) قوله تعالى: {قَالَ لَنْ تَرَانِي} والاستدلال بها على الرؤية من وجوه :

(أ) إنه لا يظن بكليم الله تعالى ورسوله الكريم ، وأعلم الناس بربه في وقته، أن يسأل ما لا يجوز عليه ، بل هو من أعظم المحال، إذ لا يجوز على أحد من الأنبياء الجهل بشيء من أحكام الألوهية .

(ب) قال تعالى:{قَالَ لَنْ تَرَانِي} ، ولم يقل : إني لا أرى ، أو لا تجوز رؤيتي ، أو لست بمرئي .

والفرق بين الجوابين ظاهر وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي ، ولكن سيدنا موسى عليه السلام لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار ـ الدنيا ـ ، لضعف قوى البشر فيها رؤيته تعالى .

يوضحه : قوله تعالى : { ولكنِ انظُرْ إلى الجَبَلِ فإنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوفَ تَرَانِي } . فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار ، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف .

(٤) قوله تعالى : { لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهوَ يُدرِكُ الأبصَارَ } ، وجه الاستدل بالآية الكريمة :

إن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم إن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية ، ويكون بالنفي إذا تضمن أمراً وجودياً ، كمدحه بنفي السِّنة والنوم المتضمن كمال القيومة ، وبنفي الموت الذي يتضمن كمال الحياة .

(٥) حديث صحيح روي عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ الناس قالوا يا رَسُولَ اللَّهِ هل نَرَى رَبَّنَا يوم الْقِيَامَةِ ؟ ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ : {هل تُضَارُّونَ في الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟ ، قالوا لَا يا رَسُولَ اللَّهِ ، قال : فَهَلْ تُضَارُّونَ في الشَّمْسِ ليس دُونَهَا سَحَابٌ ؟ ، قالوا لَا يا رَسُولَ اللَّهِ ، قال: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ}.

وعد ابن القيم في حادي الأرواح رواة من روي رؤية الباري عز وجل ، فزادوا على الحد (نحو ثلاثين صحابياً) .

الاجماع :

أجمع الصحابة والتابعون على : أن الله تعالى يرى في الآخرة ، لابتهالهم إلى سبحانه وتعالى في طلب لذة النظر إلى وجهه الكريم واعتقادهم بذلك ، كان ذلك بقرائن من أحوال رسول الله ﷺ ، وجملة من ألفاظه الصريحة التي لا تدخل تحت الحصر .

قال الإمام مالك : " لما حجب أعداؤه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه ، ولو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة ، لم يعير الكافرون بالحجاب ، قال الله تعالى:{كلاَّ إِنَّهُم عَنْ رَبِهِم يوَمَئذٍ لَمَحْجُوبون }.

وقال الشافعي:" لما أن حجب هؤلاء في السخط ، كان ذلك دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا } .

القول الثاني : الجهمية والمعتزلة والخوارج والامامية والنجارية والزيدية من الشيعة

ذهب أصحاب هذا القول إلى أنه لا تجوز رؤية الله تعالى ، مستدلين بالنقل والعقل .

فمن المنقول :

قوله تعالى : { لَنْ تَرَانِي} ، وقوله تعالى : {لا تُدْرِكُه الأَبْصَارُ } .

ويمكن مناقشة أدلتهم :

بأن هاتين الآيتين دليل عليهم لا لهم كما تقدم .

وزعم الزمخشري ـ وهو من المعتزلة ـ بأن (لن) في قوله تعالى : { لَنْ تَرَانِي } تفيد التأبيد، تأييداً لما ذهبوا إليه من استحالة الرؤية.

وردَّ بما يأتي :

(١) إن (لن) لا تفيد التأبيد ، والدليل على ذلك : إن الله تعالى أخبر عن اليهود بأنهم لن يتمنوا الموت أبداً ، بقوله تعالى : { ولن يتمنَّوْهُ أبداً بِمَا قَدَمتْ أَيدِيْهم }.

مع أن الكفار يتمنون الموت في الآخرة ، ليتخلصوا من العذاب ، لقوله تعالى : { وَنَادَوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ}، فلو كانت (لن) للتأبيد الشامل للدنيا والاخرة كما يزعم المعتزلة لما جاز أن يتمنى اليهود والكفار الموت في الاخرة.

(٢) (لن) للتوكيد ، بدلالة قوله تعالى : (أبداً) قال ابن مالك :

وَمَنْ رَأى النَفْي بِلَن مُؤَبَدَا * فَقَولَه أُرْدُد وَسِوا فاعضُدَا

وإذا أريد بها التأبيد فهو على تأبيد النفي في الدنيا لا بالآخرة ، بدلالة (لن) في الآية المتقدمة {ولن يتمنَّوْنَهُ أبداً بِمَا قَدَمتْ أَيدِيْهم } .

الأدلة العقلية :

إنه لو كان تعالى مرئياً ، لكان مقابلاً للرائي بالضرورة ، فيكون في جهة وحيز .

ورد عليهم :

بأن لزوم الجهة والحيز ممنوعٌ ، إذ الرؤية نوع كشف وعلم للمدرك وكقوة يجعلها الله تعالى في الرائي ، من غير أن ينقص منه قدر من الادراك ، ولا يشترط فيها : مقابلة المرئي بجهة أو في جهة معها مسافة ، ومن غير احاطة بمجموع المرئي .

وأخيراً: فإن هذا الخلاف ليس بالأمر الخطير ، ما دام الفريقان ينزهان الله تعالى عن الجهة والتجسيم.

فالفريق الذي ينكر الرؤية ، يريد بانكارها تنزيه الله تعالى عن الجهة والتجسيم .

والفريق الذي يثبت الرؤية رأى النصوص والأدلة صريحة باثباتها فأثبتها ، ولكي ينزه الله تعالى عن الجهة والتجسيم فقال : (يرى من غير كيفية ولا احاطة) .

ثم ان الرؤية التي قالوا بها تكون في الأخرة ، وأوضاع الأخرة لا تشبه الحياة الدنيا ،كما هو معلوم.

رؤية الله تعالى في الدنيا

اتفقت الأمة على أن الله تعالى لا يراه أحدٌ في الدنيا ، إلا أنهم اختلفوا في رؤية النبي ﷺ ربه في الدنيا :

فمنهم من أثبتها ، ومنهم من نفاها ، وكل من الفريقين يستدل بالآدلة السمعية .

ولما كان التنازع في هذه المسألة مأثوراً ، فقال بكل منهما بعض الصحابة ، ولما كان الاحتمال للقولين ممكناً ، فلا يدعو عندئذ إلى الجزم بواحد من القولين.

القضاء والقدر

اختلف المتكلمون في تفسير القضاء والقدر على أقوال متعددة ، منها ما قاله الماتريدية :

القضاء : هو ايجاد الله تعالى الأشياء على وجه الاحكام والاتقان .

والقدر : هو علمه تعالى أزلاً بصفات المخلوقات، أي ما تكون عليه من حسن وقبح ونفع وشر .

وعليه فيكون القضاء حادثاً، فهو صفة فعل .

ويكون القدر قديماً، لأنه راجع إلى صفة العلم.

وهذا القول موافق للغة ، وهو أجدر الأقوال بالقبول ، لأن أشهر معاني القضاء في اللغة الحكم، وهو يرجع إلى الفعل ، فتناسب تفسيره في الاصطلاح بالفعل .

وأما القدر فلم يرد أن معناه في اللغة الفعل ، فناسب أن لا يفسر في الاصطلاح بالفعل ، بل بالعلم .

وقال الأشاعرة بعكس ذلك ، فجعلوا تعريف القضاء للقدر ، وتعريف القدر للقضاء .

الايمان بالقضاء والقدر وعلاقته بالجبر

الايمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الايمان، ورد بذلك بالحديث الصحيح حين جاء جبريل يسأل النبيَّ ﷺ عن الاسلام والايمان يريد تعليم المسلمين أحكام دينهم ، قال جبريل : {فأخبرني عن الايمان قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال صدقتَ}.

والمراد من الايمان بالقضاء والقدر هو :

(١) التصديق بأن الباري عز وجل عالم بالمخلوقات جميعاً في الأزل ، وما يتعلق بها في المستقبل ، كعلمه بالأزل بأن المرء يباشر الأسباب بإرادته واختياره المحض ، ثم يجازيه عما فعل.

(٢) التصديق بأن المخلوقات جميعاً وجدت بإرادته ووفق علمه الأزلي ، قال تعالى:{ إنّا نحنُ نُحيي الموتى ونكتَبُ ما قَدَّموا وآثارَهم وكلَّ شيءٍ أحصيناه في إمامٍ مبين}.

وعلى ذلك فلا علاقة بين الايمان بالقضاء والقدر، وبين الجبر والاختيار، لأن علم كاشف عما سيقع.

يقول النووي : " قال الخطابي : وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر اجبار الله سبحانه وتعالى العبد وقهره على ما قدره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه : الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من اكتساب العبد وصدورها عن تقدير منه ، وخلق لها خيرها وشرها " .

سئل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عمَّن يرتكب الموبقات ، ويقولون كان ذلك في علم الله ، فغضب ، وقال : كان ذلك في علمه ، ولم يكن علمه يحملهم عليها ، فالله تعالى يعلم بعلمه الأزلي أن الناس سيختارون طرقاً مختلفة ، فيسر لهم ما يختارون ، وأقرهم عليه .

فعلمه تعالى الأزلي لا يعني جَبْرَ الانسان على فعل ما ، فالأستاذ مثلاً يعلم مقدماً أن التلميذ المهمل سيرسب في الامتحان ، فهل يمكن للراسب أن يحتج على الاستاذ فيقول له : إن علمك برسوبي هو الذي رسبني ، لا يقول بهذا أحد .

فعلم الله تعالى صفة كاشفة ، ليس لها تأثير كالقدرة ، فلا تعني إجبار العباد على شيء .

الأخذ بالأسباب والايمان بالقضاء والقدر

الايمان بالقضاء والقدر لا ينافي الأخذ بالأسباب، بل على الانسان أن يجد ويسعى .

قال تعالى : { فامْشُوا في مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإليَه النُّشور } فلا كسل ولا تواكل .

وأمره أن لا يلقي بنفسه إلى التهلكة ، قال تعالى: { ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التَهْلُكَةِ } .

وأمره أن يجاهد في سبيل الله ، قال تعالى: {خُذوا حِذْرَكُم} .

ظهور مسألة القضاء والقدر

أثيرت مسألة القضاء والقدر عند علماء المسلمين ، لمَّا رأوا أن أدلة الكتاب والسنة والعقول متعارضة بينها:

فيما يدل على ان الانسان مجبر على فعله :

(١) قوله تعالى : { قل لن يُصيبَنَا إلاَّ ما كتب الله لنا } .

(٢) قوله تعالى : { واللهُ خلقكُمْ وما تَعملونَ } .

(٣) قول الرسول ﷺ : { الشقيُّ من شقي في بطن أمه ، والسعيد من وُعِظ بغيره } [١].

(٤) ومن حجج العقل : أننا لو قلنا بأن العبد مخير وهو خالق أفعاله ، لكانت قدرة الله تعالى محددة وغير شاملة ، وأن العبد شريك لله تعالى في إيجاد العالم .

ومما يدل على أن الانسان مخير ليس مجبوراً :

(١) قوله تعالى:{ كلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينةٌ} .

(٢) وقوله تعالى : {فمن شاءَ فليؤمنْ ومنْ شاءَ فليكفر}.

(٣) ومن حجج العقل : إننا لو قلنا بأن الانسان مجبر ، فقدرته لا أثر لها ، ولكن لو لم تكن له قدرة ، لما كان معنى للأوامر والنواهي والثواب والعقاب .

مذاهب المسلمين في القضاء والقدر

قسم العلماء الأفعال إلى قسمين :

(١) **أفعال اضطرارية** : وهي التي لا قدرة للانسان ولا اختيار له فيها ، كحركة ارتعاش اليد ، وحركة الجهاز العصبي ، والهضمي .

وقد اتفقت الفرق الاسلامية جميعها على أنها مخلوقة لله تعالى ، وليس للعبد دخل فيها ، فلا تكليف ولا ثواب ولا عقاب بها .

(٢) **أفعال اختيارية** : وهي التي للانسان فيها قدرة واختيار كالسَّير والكلام ... وهذه هي محل الخلاف بين علماء الفرق الاسلامية الذين ذهبوا فيها مذاهب مختلفة وهي :

أولاً : مذهب الجبرية :

اتباع الجعد بن درهم والجهم بن صفوان الراسبي ، وهؤلاء نفوا القدرة والاختيار والارادة عن الانسان.

وقالوا : بأن الانسان مجبر على جميع أفعاله، فهو كالريشة في مهب الريح .

وإن الله تعالى خلق في الانسان أفعاله بنوعيها الاضطرارية والاختيارية التي يخيل إلى بعضهم أنها اختيارية ، ونسبتها إلى الانسان على سبيل المجاز كما تنسب إلى الجمادات والنباتات ، فتقول : تغذى النبات ، وتحرك الحجر .

وقالوا : الثواب والعقاب جبر ، والتكاليف الشرعية أيضاً جبر .

واستدلوا على قولهم بالنصوص الآتية التي تفيد الجبر .

(١) قوله تعالى : { قل لن يُصيبَنَا إلاَّ ما كتب الله لنا } .

(٢) قوله تعالى :{ واللهُ خلقكُمْ وما تَعملونَ } .

(٣) قول الرسول ﷺ : { الشقيُّ من شقي في بطن أمه ، والسعيد من وُعِظ بغيره } [١] .

ويمكن مناقشة استدلالهم هذا وكالآتي :

إن هذه النصوص يجب تأويلها كي تستقيم مع النصوص التي تعارضها ، التي تثبت للعبد عملاً يستحق عليه العقاب والثواب والمدح والذم ، لأن الله تعالى نفى الظلم عن نفسه ، وانه لا يحاسب إلاَّ على العمل الذي اكتسبه العبد .

قال تعالى : { يومَ تأتي كلُّ نفسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وتُوفَّى كلُّ نَفسٍ ما عَمِلَتْ وَهمْ لا يُظلَمونَ}.

وقولهم هذا يؤدي إلى أنه لا تكليف بالأوامر والنواهي ، ولا معنى لإرسال الرسل ، ولا فائدة من ترتب الثواب على الطاعات ، والعقاب على المعاصي .

ثانياً : مذهب المعتزلة :

وهم يجمعون على أمور منها:

(١) أن العباد هم الذين يخلقون أفعالهم الاختيارية، وليس لله تعالى صنع ولا تقدير فيها ، لا بايجاد، ولا نفي .

(٢) الله عالم أزلاً بأفعال خلقه ، فلم يزل عالماً بمن سيؤمن وبمن سيكفر ، وهذا يميزهم عن القدرية الخالصة ، اتباع معبد الجُهني وغيلان الدمشقي ـ الذين أنكروا علم الله الأزلي ، فالله تعالى عندهم لا يعلم أفعال الفرد إلاَّ بعد وقوعها.

(٣) الانسان فاعل مختار، يعمل بالقدرة الحادثة التي منحتها أياه العناية الالهية ، فيوجهها حسبما يريد.

(٤) أمر الله تعالى وإرادته متلازمتان .

فالله تعالى يردنا نوحده ، وأن نؤمن برسله ، ونقيم الصلاة ... ويأمرنا بذلك ، ولا يريد منا المعاصي والكفر ولا يأمر به ، وإنما هو من إرادة الانسان واختياره وفعله .

واحتج المعتزلة بما يأتي :

لو كان الله تعالى خالقاً أفعال العباد ، والعباد لا اختيار لهم :

(١) لبطل التكليف الشرعي من الأوامر ، والنواهي .

(٢) لبطل الثواب والعقاب .

(٣) لانتفت فائدة بعثة الأنبياء . ويمكن مناقشة استدلالهم كالآتي :

أن أفعال العباد الاختيارية مخلوقة لله تعالى بدليل :

(١) قوله تعالى :{وَخَلَقَ كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراً }.

(٢) وقوله تعالى : { واللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلونَ } .

ثالثاً : الأشاعرة :

اتباع أبي الحسن الأشعري ، ويرون :

(١) أفعال الفرد الاختيارية مخلوقة لله تعالى، وليس للعبد تأثير في ايجادها ، وإن الله تعالى يخلق فيه قدرة على اصدار ذلك الفعل للعبد . فالفعل ابداع واحداث لله تعالى ، وكسب للعبد.

والكسب هو اقتران قدرة العبد بفعل الله بمعنى:

ان الانسان إذا أراد أن يفعل فعلاً من الأفعال ، فأن الله يخلق له في هذه اللحظة نفسها قدرة على هذا الفعل ، وهذه الأخيرة هي التي تكتسبه ، لكنها لا تخلقه .

ورأي الأشاعرة هذا توسط بين الجبرية والمعتزلة ،واستدلوا على صحة مذهبهم بما يأتي:

(١) قوله تعالى :{ وخَلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراً}.

(٢) وقوله تعالى :{ خَالقُ كلَّ شيءٍ } ، والفعل من جملة الأشياء ، فهو مخلوقة لله تعالى .

(٢) لو كان العبد موجداً لأفعاله بالاختيار والاستقلال ، لوجب أن يعلم تفاصيلها ، ويستحيل على الانسان أن يحيط بجميع الفعل، إذا تصدر منه أفعال في غفلته وذهوله ، وهي على الانسجام والانتظام وصفة الإتقان والاحكام ، والعبد غير عالم بما يصدر منه ، فوجب أن يكون مصدر ذلك هو الله تعالى .

النبوات

حاجة الإنسان إلى النبوة.

مناقشة منكري النبوات.

تعريف النبوة.

طرق إثبات النبوة.

بشرية الرسل.

الفرق بين القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى.

صفات الأنبياء .

(١) العصمة ـ أدلة العصمة .

تأويل النصوص التي تشعر بمعاصي الأنبياء.

(٢) التبليغ .

(٣) الفطانة.

(٤) الذكورة.

معجزات الأنبياء.

(أ) سيدنا موسى عليه السلام

(ب) سيدنا عيسى عليه السلام

إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ.

شواهد نبوة محمد ﷺ.

(١) المعجزات الحسية.

(٢) المعجزة المعنوية (القرآن الكريم).

(٣) بشارات الكتب السماوية.

سبب ختم النبوة.

حاجة الإنسان إلى النبوة:

الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده ، وأرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، وعلاقته بهم في المعاملة قائمة على الكرم الإلهي، والعفو والمغفرة، وإنارة سبل الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة .

هذه هي أصول المعاملة بين الله وبين عباده، ولا يمكن معرفة الخط الإلهي الحكيم وإدراك التشريع الرباني الكامل، والشعور بما بين العبد وربه من علاقة طيبة رحيمة جميلة إلا إذا نزل بذلك من عند الله كتاب فيه ما يريد الله تعالى أن يقوله لعباده ، وما يأمرهم به وما ينهاهم عنه ، ويرشدهم إليه لتتحقق مصالحهم في دنياهم ، وليجازيهم بما رتبه على أوامره ونواهيه من جزاء .

وفيه بيان أنواع العلاقات بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والمجتمع ، وفيه بيان بعض ما في الكون من مخلوقات لها صلة بالإنسان مع أنه لا يراها وعليه أن يتخذ منها مواقف معينة كالملائكة والجن والشياطين وغيرهم.

وفيه بيان مصير الإنسان وجزائه، في اليوم الآخر بالجنة أو النار ، وفيه غير ذلك مما لا يمكنه الوصول إليه عن طريق آخر غير طريق الوحي الإلهي المنزل على الأنبياء أو الرسل الذين اختارهم الله سبحانه واصطفاهم ليتلقون عنه تعالى وحيه ويبلغون إلى الناس ويسيرون فيهم على هدى الوحي .

مناقشة منكري النبوات

حاول أعداء الإسلام التشكيك في نبوة الأنبياء ورسالة الرسل (عليهم الصلاة والسلام) منذ لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى لدن سيدنا رسول الله ﷺ ، وفيما يأتي نذكر بعض من شبهاتهم وكالآتي:

الشبهة الأولى :

إن الرسول إما أن يأتي بما يوافق العقول أو بما يخالفها، فإن جاء بما يوافق العقول، لم يكن إليه حاجة، ولا فائدة فيه، وإن جاء بما يخالف العقول، وجب ردّ قوله.

والجواب: إن حصر ما يأتي به الرسول بموافق العقول ومخالفها، حصر غير حاصر، فإن ها هنا شقاً ثالثاً وهو إتيانهم بما لا يصل إليه العقل بالطاقات الميسورة له. لأن عقل الإنسان وتفكّره قاصر عن نيل الكثير من المسائل.

الشبهة الثانية:

قد دلّ العقل على أن الله تعالى حكيم، والحكيم لا يتعبّد الخلق الاّ بما تدل عليه عقولهم، وقد دلّت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعاً عالماً قادراً حكيماً، فننظر في آيات خلقه بعقولنا، وإذا عرفناه وشكرنا له، استوجبنا ثوابه. وإذا أنكرناه وكفرنا به، استوجبنا عقابه. فما بالنا نّتبع بشراً مثلنا؟!..

والجواب: إن قسماً من هذا الدليل تكرار للدليل الأول. وأما ما اُفيد في ذيله من وقوف الإنسان على حسن الشكر وقبح الكفر، فهو وإن كان صحيحاً، غير أنه يلاحظ عليه أمران:

الاول: إن كثيراً من الناس لا يعرفون كيفية الشكر. فربما يتصورون أن عبادة المقرَّبين نوع شكر لله سبحانه. فلأجل ذلك ترى عبدة الاصنام والاوثان يعتقدون أن عبادتهم للمخلوق شيئاً موجباً للتقرّب.

قال تعالى حكاية عن المشركين: ﴿**أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾(سورة الزمر:٣).

الثاني: إنَّ تخصيص برامج الأنبياء بالأمر بالشكر والنهي عن كفران النعمة، غفلة عن اهدافهم السامية. فإنهم جاؤوا لإسعاد البشر في حياتهم الفردية والاجتماعية، ولا تختص رسالتهم بالأوراد والأذكار، كتلك الّتي يرددها أصحاب بعض الديانات أيام السبت والأحد في البيع والكنائس.

الشبهة الثالثة:

قد دلّ العقل على أن للعالم صانعاً حكيماً، والحكيم لا يتعبدّ الخلق بما يَقْبُح في عقولهم. وقد وردت أصحاب الشرائع بمستقبحات من حيث العقول، كالتوجه إلى بيت مخصوص في العبادة، والطواف حوله، والسعي، ورمي الجمار، والإِحرام، والتلبية، وتقبيل الحجر الأصمّ. وكذلك ذبح الحيوان، وتحريم ما يكون غذاءً للإنسان، وتحليل ما يُنقص من بنيته.

والجواب: ان هذا الدليل مبني على الجهل بمصالح الأحكام ومفاسدها. ولذلك زعم المنكرون أن ما جاء في شريعة الإسلام من حج بيت الله الحرام بآدابه الكثيرة، أمر على خلاف العقل. ولكن الدارس لفلسفة الحج، يقف على عظيم المصالح والمنافع الّتي يتضمنها، والمجال لا يسمح باستقصائها، إلاّ انا نشير بإيجاز إلى بعضها.

فالتوجه إلى البيت، رمز الوحدة بين المسلمين في جميع أقطار المعمورة.

والسعي بين الصفا والمروة تجسيد لعمل تلك المرأة البارّة الّتي سعت بين الجبلين سبع مرات طلباً للماء لطفلها الظمآن، فجعل الباري سبحانه مواطئ أقدامها محلاً للعبادة.

والهدف من رمي الجمار إبعاد الشيطان عن حريم النفس والروح.

وهكذا الحال في بقية المراسم العبادية، والواجبات والمنهيات الشرعية، وقد كشف العلم الحديث عن الفوائد العظيمة الّتي تشتمل عليها بعض الواجبات الشرعية كالصوم، والمضار الكبيرة الّتي تشتمل عليها بعض المنهيات الشرعية كأكل لحم الخنزير وشرب الخمر وغيرهما.

الشبهة الرابعة:

إن أكبر الكبائر في الرسالة، اتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس والعقل، يأكل ممّا تأكل، ويشرب ممّا تشرب.... فأي تميّز له عليك؟ وأي فضيلة أوجبت استخدامك؟ وما دليله على صدق دعواه؟.

والجواب: ليس هذا المذكور في الدليل بشيء مستحدث، بل هذا ما كان المشركون يكررونه على ألسنتهم معترضين على رسلهم، كما ذكره تعالى في الكتاب الكريم، قال تعالى: ﴿**وأَسَرّو النَّجوى الَّذينَ ظَلَموا هل هذا إلاّ بَشَرٌ مثلُكُم**﴾ (سورة الأنبياء:٣).

وقال تعالى:﴿**وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ**﴾(سورةالمؤمنون:٣٣-٣٤).

ولكن الرسل قابلتهم بالجواب، وصدّقتهم بأنّهم مثلهم في الجسم والصورة، لكنهم غيرهم في المعرفة والكمال الروحي، لصلتهم بالله سبحانه دونهم، واطلاعهم على الغيب بإذنه سبحانه، قال تعالى: ﴿**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾(سورة إبراهيم:١١).

وقد أمر الله تعالى رسوله أنْ يواجه هذا المنطق بقوله: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ**﴾(سورة فصلت:٦).

فالجملة الأولى وهي الاتحاد في البشرية إشارة إلى أحد ركني الرسالة، وهو لزوم المماثلة التامة بين الُمرسَل والُمرْسَل إليه.

وقوله: ﴿يُوحى إِليَّ﴾، إشارة إلى وجه الفرق بينهما، وأنّه لأجل نزول الوحي عليه يجب اتباعه وإطاعته. وبذلك يظهر تميّز الأنبياء وفضيلتهم وتقدمهم على غيرهم.

مفهوم النبي في اللغة والاصطلاح

تعريف النبي في اللغة :

النبي في اللغة : مشتق من النبأ وهو الخبر ذو الفائدة العظيمة ، قال الله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ { سورة النبأ : ١ ، ٢ } ، وسمي النبي نبيًّا لأنه مُخبرٌ من الله تعالى، ويُخْبِرُ عن الله تعالى فهو مُخبَر ومُخبِر ، وقيل النبي مشتق من النباوة : وهي الشيء المرتفع .

وسمي النبي نبيًّا على هذا المعنى : لرفعة محله على سائر الناس ، قال الله تعالى في حق سيدنا إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ { سورة مريم : ٥٧ } .

(ب) تعريف النبي في الاصطلاح :

النبي في الاصطلاح هو : " إنسان ذكر حر ، أوحى إليه بشرع ، فإن أمر بتبليغه فهو رسول أيضاً ، وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي فقط " .

طرق إثباتها

ذكر العلماء جملة من الطرق للتعرف على النبوة الصادقة عن غيرها، وسنشير هنا إلى أهم هذه الطرق بنحو الاختصار:

الطريق الأول: الإعجاز:

المشهور في تعريف المعجزة أنّها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع دعوى النبوة وعدم المعارضة، فلابد لمدعي النبوة أن يقيم شاهداً على صدق دعواه وأمانته في تبليغه، ولابد أن يكون هذا الشاهد مما يعجز غيره عن الإتيان بمثله، والمعجزة على عدّة عناصر، هي:

(١) خرق العادة: الخصوصية الأولى للمعجزة هي خرق العادة يعني أنّها ليست من سنخ النظام العادي الحاكم على العالَم.

(٢) الاقتران مع دعوى النبوة: أي أنّ الشخص المدعي للنبوة يأتي بالمعجزة كدليل على دعواه النبوة، فالإتيان بما هو خارق للعادة لا يسمى معجزة إلاّ إذا كان مقترناً بدعوى النبوة.

(٣) التحدي: إنّ مدعي النبوة يجب عليه تحدي المخالفين على الإتيان بمثل معجزته، ويرى بعض المتكلمين أنّ هذا الشرط مشتمل على أمرين، أحدهما دعوة المخالف إلى الإتيان بمثل معجزته، والآخر عجز المخالف عن الإتيان بمثله.

(٤) المطابقة مع القصد والدعوى: فلابدّ من مطابقة فعل مدعي النبوة لدعواه حتى يكون الإعجاز دليلاً على صدق النبوة، فلو خالف فعله مدعاه فإنه لا يسمّى معجزاً حتى لو كان خارقاً للعادة.

(٥) عدم القابلية على التعليم والتعلم: الخصوصية الخامسة للمعجزة هي عدم القدرة على الإتيان بها عن طريق التعلم والتعليم بخلاف السحر وبعض الأعمال التي يقوم بها المشعوذون فمن الممكن اكتسابها وتعلمها.

(٦) عدم المعارضة: يعني أنّ المخالف لا يمكنه إبطالها أبداً، فالإعجاز لا يتحقق إلاّ إذا عجز الناس عن القيام بمعارضة ما أتى به مدعي النبوة، وعليه فإنّ ما يقوم به بعض الأطباء والمخترعين من الأمور العجيبة خارج عن إطار الإعجاز وكذا ما يقوم به السحرة وغيرهم، فالسحر مثلاً أمر بشري لذا قد يأتي ساحر آخر فيبطل سحر الأول، بخلاف المعجزة فهي أمر إلهي خارق للعادة لا يمكن إبطاله من البشر مطلقاً.

الطريق الثاني: تنصيص النبي السابق (البشارة) .

من جملة الطرق التي تثبت بها صدق مدعي النبوة هو نص النبي السابق الثابتة نبوته على نبي لاحق يأتي من بعده، وهذه الحجة لا تقل في دلالتها على حجية المعجزة، وذلك لأنّه من جملة شرائط النبوة هو العصمة عن الخطأ والزلل والكذب، فلو قال إنه سيأتي نبي بعدي فلابدّ أن يكون الأمر كما أخبر.

الطريق الثالث: جمع القرائن والشواهد:

هذا هو الطريق الثالث لمعرفة صدق دعوى النبوة، حيث تجمع الشواهد والقرائن وتضم لبعضها ليحصل يقين بصدق الدعوة، فكلّ قرينة من هذه القرائن وإنْ كانت منفردة تفيد الظن إلا أنّ ضمها لبعضها يقوي الظن حتى يكون من القوة إلى درجة لا يبقى مجال للشك في صدق المدعي.

وهذا الأسلوب من الأساليب العقلية البشرية الرائجة لأجل الوصول إلى الحقيقة، وقد اُستعمل بكثرة في الدعاوى القضائية حيث يلجأ القاضي إلى التأمل في مجموعة من الشواهد التي تدين المتهم أو تبرئه ليصل من خلال ذلك إلى حكم قاطع،

بشرية الرسل

يجوز في حق الرسل كل الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم ومكانتهم. فالرسل من البشر يجوز عليهم كل ما يجوز على البشر من الأمور الغريزية والعاطفية في حدود مكانة رسالتهم وما يتفق مع منزلتهم كرسل من الله تعالى إلى عباده.

فيجوز عليهم الأكل والشرب والاتصال الجنسي كما يجوز أن يرضوا ويفرحوا ويغضبوا ويستحيوا ويخافوا، كما يجوز أن يمرضوا بالأمراض التي لا تعجزهم عن أداء رسالتهم، ولا تنفر الناس منهم (وما قيل عن أيوب عليه السلام من أنه مرض مرضا نفر الناس منه يعتبر كذباً وافتراءً عليه) وهكذا يجوز في حقهم جميع أعراض البشرية في حدود ما ذكر .

والدليل على ذلك مشاهدة تلك الأعراض بهم، كما أن هذه الأعراض لا تخل بمنصب الرسالة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ { سورة فصلت : ٦ } ، وقال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ } { سورة الأنبياء : ٧ }.

فالرسل رجال من البشر فيهم جميع خواص البشرية ولا يمتازون عنهم بشيء سوى أنهم رسل اختارهم الله لوحيه وهداية من شاء من خلقه، ففيهم جميع الأعراض التي تصيب البشر ولا تخل بالرسالة .

أما الأعراض التي تخل بمنصب الرسالة مثل الإغماء الطويل والجذام، والبرص والجنون والعمى والأمراض المنفرة كلها ممتنعة عليهم.

وأما السهو والنسيان فلا يجوزان عليهما إلا فيما يتصل بأمر التشريع فقط كسهو الرسول ﷺ في الصلاة لتعليم الأمة، وأمل النسيان من جانب الشيطان فمستحيل عليهم إذ ليس للشيطان عليهم سبيل، وما كان قول يوشع عليه السلام:﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ ﴾{سورة الكهف: ٦٣}، إلا تواضعاً وتأدباً مع الله تعالى .

الفرق بين القرآن الكريم
والكتب السماوية السابقة

القرآن الكريم كلام الله المنزل على سيدنا رسول الله ﷺ بقصد التحدي والإعجاز تبيانًا لمنهج الله تعالى، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم كتاب أنزله الله تعالى كما أنزل التوراة والإنجيل، إلا أن هناك فرق كبير بين القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية الأخرى، وفيما يأتي نذكر بعض الفروق بإيجاز بين القرآن الكريم مع الكتب السماوية السابقة (التوراة والإنجيل) نذكرها وكالآتي:

(١) كان المقصود من الكتب السماوية بخلاف القرآن الكريم تبيان المنهج فقط.

أما القرآن الكريم، فقد قصد بالقرآن الكريم تبيان المنهج من ناحية، وبقاؤه معجزة دالة على صدق النبي ﷺ من ناحية أخرى .

(٢) القرآن الكريم منهج ومعجزة في آن واحد، أما التوراة مثلاً، فقد كانت منهجاً فقط وكانت المعجزة العصا وغيرها. وكان الإنجيل منهجاً فقط أيضاً، أما المعجزة فكانت إبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من معجزات المسيح.

(٣) إن الكتب السماوية السابقة قد أنزلها الله تعالى على نية التغيير لها، أما القرآن فقد نزل على نية الثبات إلى أن تقوم الساعة. ولذلك كان لزاماً أن يؤيد القرآن الكريم بمعجزة مقرونة به على الدوام بحيث يدلل القرآن الكريم كمعجزة خالدة على صدق الرسول ﷺ .

(٤) القرآن الكريم اسمه القرآن بلا شك وهذا الاسم وارد فيه منذ نزوله، فنحن نقرأ:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ {سورة النساء ٨٢:٤}، ومحتواه ثابت عند جميع المسلمين، فعدد سوره ١١٤ سورة بلا شك.

أما الكتاب المقدس فاسمه غير وارد فيه ولا أصل له، وهناك خلاف في محتواه بين الطوائف المسيحية حول عدد أسفاره، فيؤمن الأرثوذكس والكاثوليك بأن عدد أسفار الكتاب المقدس ٧٣ سفراً، بينما يؤمن البروتستانت بأن عدد أسفار الكتاب المقدس ٦٦ سفراً فقط.

(٥) القرآن الكريم كلام الله تعالى المعجز لا يشبه كلام البشر، وتتعدد أوجه الإعجاز فيه، ومن هذه الأوجه عجز العرب وهم اساطين البيان عن الإتيان ولو بسورة واحدة مثل سوره، يقول الله تعالى:﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾{سورة البقرة ٢٣:٢}.

أما الكتاب المقدس فكلام عادي يشبه كلام البشر، بل بعضه أدنى من كلام البشر. فعلى سبيل المثال، يحدثنا الكتاب المقدس عن الخمر والزنا في بيوت الأنبياء. فنحن نقرأ: وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلاً» (التكوين١٩:٣٠–٣٢) .

(٦) التعهد بحفظه القرآن الكريم كما أننا نجد في القرآن ما يشير إلى أنه كلام الله تعالى المنزل على نبيه ﷺ، نجد فيه أيضاً ما يشير إلى حفظه بنفس النص الموحى به حتى يوم القيامة، يقول الله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾{ سورة الحجر ٩:١٥} .

أما الكتاب المقدس فليس فيه ما يدل على أنه كلام الله تعالى صراحة، وليس فيه ما يشير إلى حفظه من التحريف والتبديل والتغيير.

صفات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام

أولاً: العصمة اتفق جمهور العلماء على أنه يجب شرعاً وعقلاً وشرعاً أن يتصف الرسل والأنبياء الكرام بصفات معينة لا يتصور العقل ولا يرضى الشرع انتفاء صفة منها منهم، وهي:

(١) العصمة .

(٢) الصدق .

(٣) التبليغ .

(٤) الفطانة .

(٥) الذكورة .

أولاً: العصمة

العصمة لغة: الحفظ .

واصطلاحاً: هي لطف من الله تعالى ، يحمله على فعل الخير، ويزجره عن فعل الشر، مع بقاء الاختيار، تحقيقاً للابتلاء.

أو بتعريف آخر : هي أن لا يخلق الله تعالى فيهم ذنباً.

فهم محفوظون ظاهراً من الزنا، وشرب الخمر، والسرقة، والكذب، وأمثال ذلك من المنهيات والمستقبحات، كما أنهم محفوظون باطناً من الحسد، والكبر، والرياء، وأمثال ذلك من المنهيات الباطنة.

والدليل على وجوب اتصافهم بالعصمة أنهم لو خانوا بفعل المعصية لكان أتباعهم مأمورين من الله تعالى بفعل المعصية التي فعلها الرسول، والله تعالى لا يأمر بالمعصية: قال تعالى: { إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء} ﴿سورة الأعراف : ٢٨﴾.

فصفوة البشر إذن معصومون من الله تعالى من الوقوع في المعصية سواء أكانت هذه المعصية صغيرة أم كبيرة، وذلك ما يتفق مع جلال أعمالهم، وشرف رسالتهم، وصلاحيتهم للقدوة الواجبة على أتباعهم، والطاعة المفروضة لهم على هؤلاء الأتباع ، قال تعالى : { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْلَكُمْ ذُنُوبَكُمْ }﴿سورة آل عمران: ٣١﴾، وقال تعالى : {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ } ﴿سورة النساء : ٦٤﴾.

تأويل النصوص التي تشعر بمعاصي
الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام)

ورد في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ نصوص ربما فهم منها وقوع الأنبياء في الذنوب والمعاصي ، وهنا يجد المغرضون وأعداء الدين مجالاً يحاولون فيه تسميم الأفكار، وبلبلة النفوس بزرع الشك فيها، ويجترئون على رسل الله تعالى وصفوة خلقه بوصفهم بأوصاف لو وصف زعيمهم الذي يتبعونه ويؤمنون به لهاجوا وماجوا وآذوا وتوقحوا، واعتدوا على من يتنقص زعيمهم بكل ما أمكنهم الاعتداء به.

ومن جهة أخرى يصف الله تعالى عجز أنبيائه ورسله بأنه معصية، وقصورهم بأنه ذنب ويشتد عليهم في العتاب، ولكنه بأسلوب يفيض حناناً وعطفاً ورحمة وعفواً، لذلك لا نستطيع أن نجد في القرآن الكريم نوعاً من العتاب إلا ونجد معه ما يقابله من الرحمة والتكريم والرفعة لمكانة المرسلين الذين عاتبهم الله تعالى ، وفيما يأتي نذكر أمثلة بهذا الخصوص وكالآتي:

(١) سيدنا آدم عليه السلام قال الله تعالى في شأنه:﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ {سورة طه : ١٢١ }.

هذا هو الخبر والعتاب ، ثم قال تعالى بعد ذلك مباشرة : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ { سورة طه : ١٢٢ } .

ففي الآية الأولى كلمتا عتاب هما:

"عصى وغوى" وفي الآية الثانية كلمات تكريم وتقريب وتلطف جميل،

(أ)فعصى قابلتها كلمة : اجتباه ، أي قربه.

(ب) وآدم قابلتها كلمة ربه .

(ت) وكلمة : فغوى قابلتها كلمة : فتاب عليه .

(ث) وزيد هنا كلمة :هدى.

فأي معصية هذه التي تجلب ذلك كله.

(٢) وإبراهيم الخليل عليه السلام : أخذوا عليه قوله في الكوكب وفي القمر وفي الشمس "هذا ربي" متوهمين أن هذا لا يليق بمقام سيدنا إبراهيم عليه السلام، حتى ولو كان المراد منه التدرج مع قومه في إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته بطريقة تربوية منطقية... وهذا وهم منهم وجهل بالقرآن نفسه فإن الله تعالى اعتمد هذه الطريقة في كتابه القويم وزكاها، وبين أنها مما أنعم به على سيدنا إبراهيم عليه السلام حتى صار واسع الأفق، ثابت اليقين، قوي الحجة، مرفوع الدرجة عند ربه.

فقبل آيات المناقشة قال تعالى في مدح سيدنا إبراهيم عليه السلام بسعة العلم وقوة اليقين :﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾{ سورة الأنعام : ٧٥ }، وفي نهاية مجادلة إبراهيم عليه السلام قومه وانتصاره عليهم قال الله تعالى في شأنه : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ { سورة الأنعام : ٨٣ } .

فدلت الآيتان الكريمتان أن الله تعالى زكى طريقة إبراهيم عليه السلام وبين أنها توفيق من الله تعالى له، فمن الذي يرى لنفسه بعد ذلك وجهاً يلقى به الله تعالى وهو يعترض على سيدنا إبراهيم عليه السلام .

(٣) وفي قصة سيدنا يوسف عليه السلام في شأن ما حدث بينه وبين امرأة العزيز التي فتنت به وغلقت الأبواب وراودته عن نفسه بطريقة مكشوفة وبأسلوب صريح، فقد قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ {سورة يوسف : ٢٤}.

فإن الهم المذكور في هذه الآية وضع في إطار من العصمة الإلهية، والتزكية الربانية، بحيث لا يسع أي منصف إلا أن يقف أمام موقف سيدنا يوسف عليه السلام في إجلال وإكبار وإعظام، فقبل هذا الهم قال تعالى في يوسف عليه السلام:﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ {سورة يوسف: ٢٢ }، وبعده يأتي قوله تعالى:﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾{سورة يوسف:٢٤}.

وأضف على ذلك فلو تمعنا في قوله تعالى:{كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء} دلت الآية الكريمة : أن يوسف عليه السلام كان إيمانه قوياً لحد لم يتمكن السوء والفحشاء أن يغلبه، لذا فقد صرف الله تعالى السوء والفحشاء عنه، لا أن يحفظ يوسف عليه السلام عن السوء والفحشاء، لأنه لو كان سيدنا يوسف عليه السلام قد هم بالوقوع في الفاحشة لكان من المفروض أن يكون تقدير الآية:{كذلك لنصرفه عن السوء والفحشاء }.

(٤)وأما سيدنا رسول الله ﷺ فإن القول في جنابه يجب أن يكون في غاية الأدب والخشوع والإكبار والاحترام لهذا النبي العظيم.

إنه رسول الله ﷺعبد خاضع لربه، أعطى عبوديته كل ذله وخشوعه وخضوعه، وأعطاه ربه من التكريم ما لم يعط أحداً غيره.

ولا نجد في القرآن الكريم صورة ظاهرها العتاب من الله تعالى لحبيبه إلا ونجد إطار هذه الصورة وظلالها وملامح جوهرها تفيض حباً وتعظيماً وتكريماً وثناء عاطراً من الله تعالى لحبيبه سيدنا محمد ﷺ.

مثال على ذلك : قصة زواج زيد بن حارثة رضي الله عنه الذي كان مملوكا للنبي ﷺ فأعتقه النبي ثم تبناه ، أي اتخذه ولداً على عادة العرب حينئذ، ثم زوجه بأمر الله تعالى زينب بنت جحش ابنة عمته ﷺ ، وكانت كارهة هذا الزواج لأنها حرة، وزيد مولى من الموالي، ولم ينفذها إلا بعد نزول قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا

قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾ {سورة الأحزاب : ٣٦ }.

وأراد الله تعالى من هذا الزواج إبطال تقليد اجتماعي خطير من مبادئ الجاهلية، وهو أن يكون للابن المتبني كل ما للأبن الصلب من الحقوق والأحكام، سواء في ذلك الميراث وحرمة تزوج الأب من زوجة ابنه المتبني وغير ذلك.

فكان زواج زيد بن حارثة من زينب توطئة لذلك، فقد أخبر الله نبيه محمدا ﷺ بالوحي بأن زيداً سيطلق زينب ثم تتزوجها أنت بعده لإبطال هذه العادة الجاهلية عملياً على يد رسول الله نفسه حتى ينحسم الأمر نهائياً وبصورة قاطعة.

وجاء زيد بن حارثة يشكو إلى رسول الله ﷺ زينب، وأنها تتعالى عليه، وأن العشرة بينهما غير مستطاعة، والرسول ﷺ وحده يعلم أن الطلاق سيتم ولكنه قال لزيد: (أمسك عليك زوجك واتق الله).

فالرسول نظر إلى القضية على أنها خطيرة، وسوف تثير حوله الأقاويل إلى أبعد مدى، والمدينة مشحونة بأعدائه من اليهود والمنافقين المتربصين لكل حركة وكل كلمة.

وتزوج إنسان عادي زوجة آخر بعد الموافقة على تطليقها منه كثيراً ما يكون سبباً في هدم شخصية الزوج، وتنقيص مكانته بين الناس، فما بالك إذا كان الذي وافق على الطلاق وتزوج المطلقة هو رسول الله ﷺ ، وكانت المطلقة قبل طلاقها زوجة من يسميه العرب ابن محمد).

لذلك كان لا بد من نزول قرآن يحسم الموقف، ويشرح القضية ويذكر جميع ملابساتها ويدفع الرسول ﷺ إلى السرعة في التنفيذ بأسلوب التهييج والإثارة.

وهنا تعلق المغرضون بقوله تعالى لرسوله ﷺ :﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ وظنوها غلطة لا تليق بمقام الرسالة، وافتروا على الله تعالى وعلى رسوله فيما يتوهمون .

ومن يتمعَّن في الأسلوب القرآني لوجد آيات كثيرة قد استعمل مثل هذا التعبير في التهييج والدفع إلى الشيء الخطير وتنفيذ أمر ذي شأن كبير وأهمية معينة، نذكر منها : .

قال الله تعالى في حض المؤمنين على قتال أعدائهم : ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾{ سورة التوبة : ١٣ }.

فقوله {تَخْشَوْنَهُمْ} لا يراد به التنقيص، إنما يراد به الإثارة والتهييج... وإن عبارة (وتخشى الناس). فإنها جزء من آية جاء فيها بعد هذه العبارة (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها).... فالله تعالى هو الذي تولى تزويج رسوله لإبطال هذه العادة ويكفي رسول الله ﷺ شرفا أن الله تعالى هو الذي زوجه .

وقبل هذه الآية وبعدها في نفس السورة آيات عديدة كلها تكريم ورفعة لمقام رسولنا محمد ﷺ منها قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ { سورة الأحزاب:٦}، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾{ سورة الأحزاب :٤٦} ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾{ سورة الأحزاب: ٥٦} [1].

ثانياً : الصدق:

يجب الاعتقاد بصدق الرسل والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، ويجب الاعتقاد أيضاً بأنهم يستحيل عليهم الكذب استحالة شرعية وعقلية.

فأما وجوب صدقهم واستحالة كذبهم فيما يبلغون عن الله تعالى فدليله أنهم لو كذبوا في ذلك للزم الكذب في خبره تعالى، لأن الله تعالى صدق رسله بتأييدهم بالمعجزات، فإن المعجزة التي يظهرها الله تعالى على أيدي رسله منزلة قول الله تعالى للمرسل إليهم : "إن رسولي صادق في قوله بدليل تأييدي له بالمعجزة التي لا يقدر عليها أحد سواي".

فكذب الرسل فيما يبلغون عن الله تعالى محال، فثبت صدقهم فيما يبلغونه عنه تعالى واستحال كذبهم في ذلك ، قال تعالى : {وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} ﴿سورة الأحزاب : ٢٢﴾.

وقال تعالى في شأن افتراء الكفار على رسول الله ﷺ وقولهم إن القرآن الكريم من عنده هو لا من عند الله :{ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤)لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦)فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } ﴿سورة الحاقة: ٤٧﴾ ، وموجز المعنى أن الله تعالى يقول : لو قال رسول الله ﷺ على الله كلمة واحدة لم يقلها الله تعالى لقتله الله شر قتلة.

وأما وجوب صدق الرسل واستحالة كذبهم في غير ما يبلغون عن الله تعالى فالدليل عليه أن الرسل لو كذبوا لكان كذبهم خيانة ومعصية وذنباً ، وقد ثبت أنهم معصومون من الذنوب والخيانة.

ثالثاً : الفطانة:

تقصد بالفطانة حدة العقل وذكاؤه، وقوة الفهم وعمقه، وسرعة البديهة، وحضور الذاكرة بحيث يستطيع الإنسان المتصف بها إلزام خصمه وإفحام المعاندين والمكابرين له، كما يستطيع بسهولة الإبانة والإفصاح عما يريد أن يقوله.

والدليل على وجوب اتصاف الرسل بها: أن الرسل أرسلوا لبيان الشرائع والأحكام وإزالة الشبهة وترسيخ مبادئهم بالإقناع بالحجة بالنسبة لمن آمن بهم كما أرسلوا بإقامة الحجة وإلزام الخصم، وإبطال جميع حججه وأدلته، فلم يتصفوا بالفطانة لاتصفوا بضدها، من البلادة [2] والعي [3] والغفلة فتضيع فائدة الرسالة، قال تعالى:{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} ﴿سورة الأنعام:٨٣﴾، وقال تعالى:{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} ﴿سورة النحل: ١٢٥﴾.

---

(١) ينظر : عصمة الأنبياء : الرازي : ١٢٥.

(٢)البلادة : ركود الذهن ، ثقل الفهم تجعل صاحبها مقصراً في إدراك المعارف ..

(٣) العي: العجز عن التعبير اللفظي بما يفيد المعنى المقصود.

. :

رابعاً: التبليغ:

ومعناه أن يوصل الرسول ما أمره الله تعالى بإيصاله إلى من أرسل إليهم، فيجب للرسل التبليغ، ويستحيل عليهم ضده وهو كتمان شيء مما أمرهم الله تعالى بتبليغه، والدليل على وجوب التبليغ أنهم لو كتموا شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق لكنا مأمورين بكتمان العلم، لأن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم، وكوننا مأمورين بكتمان العلم باطل .

فكتمانهم شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق يكون باطلاً، فثبت لهم التبليغ، واستحال عليهم الكتمان لشيء مما أمروا بتبليغه، كما أن كتمانهم يضيع الفائدة من رسالتهم، ولذا قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ}﴿سورة المائدة ٦٧﴾.

خامساً: الذكورة:

إن من حكمة الله تعالى في رسله وأنبيائه أنه جعل الذكورة شرطاً من شروط الرسالة والنبوة، وقد نقل بعض أهل العلم الإجماعَ على ذلك، فالله تعالى اختار جميع الرسل الذين أرسلهم من الرجال، ولم يبعث الله رسولاً من النساء، يدلُّ على ذلك: صيغة الحصر التي وردت في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم} ﴿سورة الأنبياء : ٧﴾.

والحكمة من كون الرسل والأنبياء رجالاً من دون النساء لحكَم يقتضيها المقام، فمن ذلك:

(١) أنّ الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة ، ومخاطبة الرجال والنساء، ومقابلة الناس في السرّ والعلانية، والتنقل في فجاج الأرض، ومواجهة المكذبين ومحاججتهم ومخاصمتهم، وإعداد الجيوش وقيادتها، وكل هذا يناسب الرجال دون النساء

(٢) المرأة يطرأ عليها ما يعطلها عن كثير من الوظائف والمهمات، كالحيض والحمل والولادة والنفاس، وتصاحب ذلك اضطرابات نفسية وآلام وأوجاع ، عدا ما يتطلبه الوليد من عناية، وكل ذلك مانع من القيام بأعباء الرسالة وتكاليفها .

ذكر معجزات الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام)

إن من حكمة الله تعالى في خلقه أنه يؤيد أنبيائه ورسله بمعجزات من نوع ما فاق وأبدع فيه القوم المرسل إليهم حتى تنقطع حجتهم عن رسولهم، لأن الرسول لو جاء بمعجزة من نوع يجهلونه وطالبهم أن يأتوا بمثلها لكان لهم أن يقولوا : إن هذا شيء نجهله ولو علمناه لعارضناه، أما إذا تحداهم الرسول بمعجزاته في أمر قد برعوا فيه وأجادوه ثم لم يستطيعوا معارضته فإن ذلك يفحمهم ويلزمهم الحجة .

وفيما يأتي نذكر بعض من معجزات الأنبياء والرسل (عليهم السلام) وكالآتي:

(١) معجزة النبي موسى عليه السلام :

عندما أرسل الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام كان فن السحر شائعاً في القبط قوم فرعون، ولهم فيه المهارة التامة، ويعلمون من شأنه ما هو ممكن للبشر معرفته وصنعه منه وما ليس ممكناً لهم، فلما سحر السحرة منهم الحبال والعصي بأمر فرعون، وصارت ترى حيات تسعى ألقى سيدنا موسى عليه السلام عصاه بأمر الله تعالى ، فقلبها الله تعالى ثعباناً عظيماً فابتلعت تلك الحيات الكثيرة ، ثم لما أخذها بيده عادت عصا كما كانت، فخر السحرة لله تعالى ساجدين ، وآمنوا برسالة سيدنا موسى عليه السلام، وصبروا على تعذيب فرعون لهم، وما ذلك إلا لأنهم بسبب معرفتهم فن السحر وعلمهم بمقدار ما يدخل منه في طوق البشر وما لا يدخل أيقنوا أن تلك الخارقة، وهي انقلاب العصى ثعباناً ابتلع حبالهم وعصيهم المسحورة على صورة الحيات، ثم عودتها كما كانت مع تلاشي حبال السحرة وعصيهم دليل على أن ما حصل على يد سيدنا موسى عليه السلام ليس سحراً ، وإنما هو آية ومعجزة من عند الله تعالى .

(٢) معجزة النبي عيسى عليه السلام :

ولما بعث الله تعالى سيدنا عيسى عليه السلام كان فن الطب شائعاً في بني إسرائيل، فكان من حكمته تعالى أن جعل كثيراً من معجزاته عليه السلام من قبيل أعمال أهل الطب، فأبرأ الله تعالى على يديه الأكمه، والأبرص، وأحيا الموتى.

فأحياءه للموتى، وشفاؤه للأكمه والأبرص ـ بأذن الله تعالى ـ في الحال بمجرد لمسه أو الدعاء له لم يكن باستطاعة أحد من الأطباء، فلما أتى سيدنا عيسى عليه السلام بهذه الخوارق التي لا يستطيعها حذاق الأطباء فعلها كان ذلك دليلاً على صدق دعوى رسالته.

شواهد وإثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ.

إن الأدلة على نبوة رسول ﷺ أكثر من أن تحصر، ويكفى دليل واحد ليؤمن من شاء أن يؤمن، ومعجزاته ﷺ التي أيده الله تعالى بها منها ما هو متواتر، ومنها ما ليس متواتراً ، وعليه فأن معجزاته ﷺ تنقسم إلى قسمين:

***حسية كنبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكثير الطعام بدعائه ....**

*** معنوية كالقرآن الكريم.**

أولاً : أمثلة المعجزات الحسية :

(١) نبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ :

أخرج الشيخان في صحيحهما عن سَالِمٍ عن جَابِرِ بن عبدالله رضي الله عنه قال : عَطِشَ الناس يوم الْحُدَيْبِيَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بين يَدَيْهِ رَكْوَةٌفَتَوَضَّأَ منها ، ثُمَّ أَقْبَلَ الناس نَحْوَهُ فقال رسول اللَّهِ ﷺ : { ما لَكُمْ } ؟ قالوا يا رَسُولَ اللَّهِ ليس عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ بِهِ ولا نَشْرَبُ إلا ما في رَكْوَتِكَ ، قال : فَوَضَعَ النبي ﷺ يَدَهُ في الرَّكْوَةِ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَفُورُ من بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ ، قال فَشَرِبْنَا، وَتَوَضَّأْنَا، فقلت لِجَابِرٍ كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ ؟ قال لو كنا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا، كنا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً ".

(٢) تكثير الطعام ببركة دعائه ﷺ :

أخرج الشيخان في صحيحهما عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال كنا مع النبي ﷺ في مَسِيرٍ قال : " فَنَفِدَتْ أَزْوَادُ الْقَوْمِ قال حتى هَمَّ بِنَحْرِ بَعْضِ حَمَائِلِهِمْ ، قال فقال عُمَرُ : يا رَسُولَ اللَّهِ لو جَمَعْتَ ما بقى من أَزْوَادِ الْقَوْمِ فَدَعَوْتَ اللَّهَ عليها قال : فَفَعَلَ ، قال : فَجَاءَ ذُو الْبُرِّ بِبُرِّهِ ، وَذُو التَّمْرِ بِتَمْرِهِ ، وَذُو النَّوَاةِبِنَوَاهُ ، قلت : وما كَانُوا يَصْنَعُونَ بِالنَّوَى ؟ قال كَانُوا يَمُصُّونَهُ وَيَشْرَبُونَ عليه الْمَاءَ ، قال فَدَعَا عليها حتى مَلَأَ الْقَوْمُ أَزْوِدَتَهُمْ ، فقال عِنْدَ ذلك : {أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله وَأَنِّي رسول اللَّهِ ، لاَ يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غير شَاكٍ فِيهِمَا إلا دخل الْجَنَّةَ}" .

(٣) تكليم الشجر له ﷺ :

أخرج مسلم في صحيحه عن مَعْنِ بن عبد الرحمن رضي الله عنه قال سمعت أبي يقول : سَأَلْتُ مَسْرُوقًا من آذَنَ النبي ﷺ بِالْجِنِّ لَيْلَةَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ ؟ فقال :حدثني أَبُوكَ (يَعْنِي عَبْدَ اللَّهِ بن مسعود) أَنَّهُ آذَنَتْ بِهِمْ شَجَرَةٌ " .

(٤) حنين الجذع له ﷺ :

أخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن عبدالله بن عَبَّاسٍ رضي الله عنه ان النبي ﷺ كان يَخْطُبُ إلى جِذْعٍ فلما صُنِعَ الْمِنْبَرُ فَتَحَوَّلَ إليه حَنَّ الْجِذْعُ فاتاه رسول اللَّهِ ﷺ فَاحْتَضَنَهُ فَسَكَنَ وقال :{ لو لم أَحْتَضِنْهُ لَحَنَّ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ }.

(٥) تسليم الحجر عليه ﷺ :

أخرج الترمذي عن جَابِرِ بن سَمُرَةَ رضي الله عنه قال قال رسول اللَّهِ ﷺ:{ إِنَّ بِمَكَّةَ حَجَرًا كان يُسَلِّمُ عَلَيَّ لَيَالِيَ بُعِثْتُ إني لأَعْرِفُهُ الْآنَ }.

وله ﷺ معجزات حسية كثيرة غير ما ذكر غير أننا اكتفينا بالأمثلة السابقة لدلالتها على المطلوب.

ثانياً : المعجزة المعنوية (معجزة القرآن الكريم):

أعلن سيدنا رسول الله ﷺ أن الله تعالى أرسله إلى الناس كافة ليبلغهم شرعه ودينه، وبشر من اتبعه بالفلاح في الدنيا والآخرة ، وأعلن فيهم الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وهدم كل ما ورثوه من شرك وكفر ، وأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وأحل لهم الطيبات، وحرم عليهم الخبائث.

وعندما سمع منه الناس هذه الدعوى العظيمة نفروا منه، وعادوه أشد المعاداة ، وكذبه الكبير والصغير، ثم أخذوا في مجادلته ومخاصمته، وطلبوا الحجة على صدق دعوى رسالته، فجاءهم ﷺ بمعجزات كثيرة كما طلبوا.

غير أن المعجزة الخالدة التي استند إليها في إثبات رسالته هي : المعجزة العقلية المعنوية العظمى: (القرآن الكريم)، وإنما كان تحدي النبي ﷺ لقومه بالقرآن الكريم، لأنه كان في العرب أمراء الفصاحة والبلاغة، وكانوا أكثر الناس شاعراً وخطيباً، وفيهم العالمون بأساليب الفصاحة والبلاغة ، والمحيطون بأسرارها.

فأخذ الرسول ﷺ يتحدى قومه والناس جميعاً بهذه المعجزة الربانية ثلاثة وعشرين عاماً، وأعلمهم ـ على الرغم أنه كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ـ بأنه لو اجتمع البشر كلهم ، وتظاهرت الجن معهم على أن يأتوا بمثل بلاغة وفصاحة القرآن الكريم ما استطاعوا أن يأتوا بسورة مثله ولو كأقصر سورة منه ، يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ { سورة الإسراء : ٨٨ } .

ولا يزال القرآن الكريم وسيظل يتحدى العالم كله في كل زمان ومكان ومهما أوتوا من علوم الفصاحة والبلاغة وغيرهما أن يعارضوا آية من كتاب الله تعالى .

ثالثاً : بشارات الكتب السماوية بالنبي ﷺ:

لقد أشار القرآن الكريم إلى العهود والمواثيق التي أخذت من الأنبياء السابقين وأممهم بالإيمان بخاتم النبيين ونصرته إن هم أدركوا بعثته كما في قوله تعالى :﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾{سورة آل عمران: ٨١}.

كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ {سورة البقرة:١٤٦}.

وقد جاءت البشارة برسول الله ﷺ على لسان عيسى بن مريم باسمه صراحة كما أخبر القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ }{سورة الصف: ٦}.

أما في الكتاب المقدس فعلى الرغم من تحريف اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل فقد بقيت بعض الشهادات في نسخ منها، أحياناً بالاسم الصريح، فقد جاء فيها : (وامتلأت الأرض من تحميد أحمد، ملك بيمينه رقاب الأمم) [1].

وفي النسخة المطبوعة في لندن قديماً سنة ١٨٤٨، والأخرى المطبوعة في بيروت سنة ١٨٨٤، والنسخ القديمة: (لقد أضاءت السماء من بهاء محمد، وامتلأت الأرض من حمده، زجرك في الأنهار، واحتدام صوتك في البحار، يا محمد ادن، لقد رأتك الجبال فارتاعت) [2] .

---

(١)سفر حبقوق: الإصحاح: ٣.

(٢) ينظر : الرسل والرسالات: د. عمر سليمان الأشقر :١٦٨.

وجاء أيضاً : (اقبل الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير، وتجلى من جبل فاران) [1] وهي المواضع التي أرسل فيها أنبياء الله موسى وعيسى ومحمد (عليهم الصلاة والسلام)جميعاً.

فجبل سعير الموضع الذي أوحى الله فيه إلى عيسىعليه السلام، وسيناء الموضع الذي كلم الله موسى عليه السلام، وفاران هي جبال مكة، وهذه المواضع أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى :﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ* وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾{ سورة التين: ١-٣}.

أن الله سبحانه وتعالى قال للنبي موسى عليه السلام :(أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم، مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به) [2].

هذا الكلام ينطبق على سيدنا رسول ﷺ ولا ينطبق على المسيح عيسى كما يحاول النصارى أن يؤكدوا، لأن المسيح لم يتزوج ولم يحارب ولم يهاجر ولم يدفن، بل رفعه الله إليه.

ومن مزامير سيدنا داود عليه السلام : فقال: (فاض قلبي بكلام صالح، أتكلم بانشائى للملك، أنت أبرع جمالاً من بني البشر، انسكبت النعمة على شفتيك، لذلك باركك الله إلى الأبد، تقلد سيفك أيها الجبار، بجلالك اقتحم، اركب من أجل الحق والدعة فتريك يمينك مخاوف، وشعوب تحتك يسقطون، كرسيك يا الله إلى دهر الدهور، من أجل ذلك مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك، بنات الملوك بين محظياتك) [3].

وقد قال النصارى أن هذا الكلام عن المسيح، بينما هو لا يوافق عقيدتهم في عبادة المسيح لقول داود النبي(الله إلهك.

أيضا هذا الكلام عن نبي يحارب أعداءه ويهزمهم بالسيف، ولم يظهر نبي بعد داود عليه السلام يحارب أعداءه بالسيف ويهزمهم شعوباً أخرى كثيرة سوى محمد ﷺ .

وأعطى تفسيراً سريعا لكلام النبي (داود) عن سيدنا رسول عليهما الصلاة والسلام :

(١) (الملك) هو أعظم نبي وخاتم الأنبياء ومثلها (مسحك الله أكثر من رفقائك) أكثر من الأنبياء.

(٢) (انسكبت النعمة على شفتيك) يحفظ رسالته من الوحي لأنه أمي ولا ينطق إلا حقاً ويعلم الناس القرآن بالحفظ أيضاً .

(٣) حارب الكفار ونصره الله بالرعب مسيرة شهر (بجلالك اقتحم) وذلك لأجل نشر الدعوة إلى دين الله الحق.

(٤) تزوج من بنات العظماء والملوك (بنات الملوك من محظياتك).

(٥) رسالته تنمو دائماً (بارك الله إلى الأبد).

كما جاءت البشارة به على لسان أفراد من أهل الكتاب كما في حادثة بحيرا الراهب حيث قال لأبي طالب: ارجع بابن أخيك، واحذر عليه يهود، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم [4].

ومن جهة أخرى فاليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

---

(١)سفر التثنية الإصحاح: ٣٣.

(٢) سفر التثنية: ١٨:١٨.

(٣)مزمور: ٤٥.

(٤) ينظر : السيرة النبوية لابن هشام بشرح الروض الأنف، ١/ ٢٠٦.

خاتم النبيين والمرسلين:

اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون الشريعة الإسلامية صالحة لجميع البشر في كل زمان ومكان، كفيلة بإسعاد المجتمع العالمي كله إذا أخذ بها ، لأنها عالجت جميع احتياجاته ، ووضعت الحلول لجميع مشكلاته إما عن طريق التفصيل وإما عن طريق الإجمال .

وترك التفصيل للعقل البشري يتصرف فيه حسب موازين الشرع وأصوله قال تعالى:﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾{سورة النمل:٨٩}، لذلك أصبحت البشرية بعد إرسال رسول الله ﷺ إليها ونزول القرآن الكريم ليكون هادياً لها وتشريعاً حريصاً على سعادتها غير محتاجة إلى نبي أو رسول غيره، إنها محتاجة فقط إلى أن تجتهد فيما يحدث من أمور لا نص فيها، وقد أعطاها القرآن الكريم حق الاجتهاد اعترافاً منه ببلوغها رشدها فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ { سورة النساء: ٨٣ }.

ومن أجل هذا أعلن القرآن أن النبوة قد ختمت بمحمد ﷺ فلا نبي بعده وبالتالي فلا رسول بعده لأن نفي النبوة نفي للرسالة ، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ {سورة الأحزاب: ٤٠}.

عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ:{ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ :فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ }[1].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

السمعيات

الدليل على اليوم الآخر، الحاجة للإيمان باليوم الآخر .

اليوم الآخر في الإسلام.

البرزخ.

البعث والنشور.

الحساب.

السمعيات

يقصد بالسمعيات الأمور التي ورد بها السمع دون أن يراها الإنسان، وهي الغيبيات التي استأثر الله تعالى بمعرفة حقائقها، واختص بذلك نفسه جل وعلا، دون من سواه.

تعريف اليوم الآخر

أولاً: تعريف اليوم الآخر:

المراد باليوم الآخر: هو يوم القيامة الذي يبعث الله فيه الناس للحساب والجزاء. وسمي بذلك لأنه لا يوم بعده حيث يستقر أهل الجنة في منازلهم وأهل النار في منازلهم .

الحاجة للإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر هو أحدُ أرْكان الإيمان السِّتة، التي لا بدَّ منها، وإذا نظرْنا إلى القرآن الكريم وجدْناه مِن أوَّله إلى آخِره يعطي اهتمامًا كبيرًا للتذكير بهذا اليوم .

ويعدُّ الإيمان باليوم الآخر ضرورة حيوية بالنسبة للإنسان، فلا يتصور عقل عاقل يؤمن بالله تعالى أن ينتهي أمر الخلائق بمجرد موتهم، لأن الله تعالى خلقهم لغاية، وأنزل إليهم الكتب وأرسل الرسل من أجل تحقيق هذه الغاية. فمن الناس من استجاب، ومنهم أعرض، ومن استجاب ضحى بكل شيء في سبيل مرضاة ربه، ومن أعرض فعل بمن استجاب الأفاعيل، وعاث في الأرض فساداً، وظلم العباد، وخرب ودمر، وفسق وفجر، وزرع في الناس أنواع الكفر والفسوق والضلال، فهل يخطر ببال عاقل أن يمر الأمر بدون مجازاة للمحسن على إحسانه وللمسيء على إساءته؟ تعالى الله وتنزه عن ذلك. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ { سورة المؤمنون: ١١٥}.

ونظراً لأهميته نرى أن الشارع الحكيم قرن هذا اليوم في كثير من الآيات بالأحكام التشريعية، فيلمح إلى ضرورة انتباه المكلَّف في تعاطيه للمعاملات الدُّنيويَّة أنَّه موقوفٌ غدًا بين يدي ربِّه مجازًى بعمله، إنْ خيرًا، وإنْ شرًّا.

فمِن ذلك: قول الله تعالى :﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ { سورة الطلاق: ٢ } .

وقلَّما نجد سورة من سور القرآن الكريم لم يأتِ فيها ذِكْر لقضية البعْث والنشور، وهذا يدلُّ على أهمية الإيمان باليوم الآخِر في حياة المسلِم خاصَّة، وفي حياة الأمَّة عامَّة.

اليوم الآخر في الإسلام

الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان: وهو الاعتقاد الجازم بصحة إخبار الله تعالى وإخبار رسله عليهم الصلاة والسلام بفناء هذه الدنيا ، وما يسبق ذلك من أمارات وما يقع في اليوم الآخر من أهوال واختلاف أحوال ، كذلك التصديق بالأخبار الواردة عن الآخرة وما فيها من النعيم والعذاب، وما يجري فيها من الأمور العظام كبعث الخلائق وحشرهم ومحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم الاختيارية التي قاموا بها في الحياة الدنيا.

البرزخ

البرزخ لغة هو الحاجز الفاصل بين شيئين مختلفين والمانع لاختلاطهما وامتزاجهما.

ويُعرف البرزخ في الاصطلاح: على انه الحياة التي تأتي ما بعد الموت، فتبدأ الحياة البرزخية مع اللحظات الأولى من قبض الروح ومن ثم والعروج بها والرحيل إلى الدار الأخرى، وأول منازلها وهو القبر وأحواله وأهواله، يقول تعالى: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾{سورة المؤمنون: ١٠٠}.

وتختلف الحياة البرزخية اختلافاً كلياً عن الحياة الدنيوية وعن الحياة الآخروية ،فكل له صفات ومقومات تتميز في شيء يسمو على الأخر.

ففي الحياة البرزخية تسمو النفس على كل من الجسد والروح، وإن الروح ذو صلة دائمة بالبدن فهي تتعلق به تعلقا خاصاً، فإنها وإن فارقت الجسد وانسلخت عنه عند قبضها، فإنها لا تفارقه بشكل كلي، بحيث لا يبقى لها التفات ابداً، وإنما تعود إليه أحياناً في بعض الأوقات، كعودتها فور سؤال الملكين عند نزوله إلى القبر، كما أن تسليم المسلم على الميت عند زيارته له يستذكرها أيضاً، وهذا الرد هو عملية إعادة معينة للروح لا تكرر حياة البدن قبل البعث.

ومن مقتضيات الحياة البرزخية معرفة الميت لكل من يزوره من البشر، كما ويسمع الميت على الأرجح لخطاب كل من يزوره. فالمؤمن ينعم في البرزخ وروحه في الجنة وجسده يناله بعض النعيم. والكافر روحه تعرض على النار، ويناله نصيب من العذاب، وينال جسده نصيب من العذاب.

ومع كل ما ذكر اعلاه عن حياة البرزخ، تبقى هنالك الكثير من الحقائق التي لا يعلمها إلا الله ولا يدركها إلا الميت نفسه، وعلى العبد المسلم الإيمان والتسليم بمقتضيات الموت وان يعلم انه ملاقي ربه في يوم من الأيام.

هذه حال البرزخ، المؤمن في سعادة ونعيم، وأخبر النبي ﷺ إن روح المؤمن في الجنة تسرح في الجنة حيث شاءت، كما هو مذكور في القرآن في أكثر من موضع: فمنها قوله تعالى: {ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت و الملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق و كنتم عن آياته تستكبرون} و هذا خطاب لهم عند الموت و قد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم اليوم تجزون. و منها قوله تعالى فيما أخبر عن آل فرعون،{النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} (غافر:٤٦) ، فالكفار أرواحهم معذبة وأجسادهم ينالها نصيبها من العذاب حتى يبعث الله الجميع ثم تسير أرواح المؤمنين إلى الجنة وأرواح الكفار إلى النار، هؤلاء مخلدون في الجنة وهؤلاء مخلدون في النار.

البعث

أولاً: تعريف البعث:

يختلف تعريف البعث في اللغة باختلاف ما علق به، فقد يطلق ويراد به:

(١) الإرسال: يقال بَعَثَهُ يَبْعَثُه بَعْثًا، أي: أَرْسَلَهُ وَحْدَه، وبَعَثَ به، أي: أَرسله مع غيره وابْتَعَثَه أَيضًا، أي: أَرسله.

(٢) البعث من النوم: يقال: بعثه من منامه إذا أيقظه.

(٣) الإثارة: وهو أصل البعث، ومنه قيل للناقة: بعثتها إذا أثرتها وكانت قبل باركة.

يقول الأزهري: "والبعث في كَلَام الْعَرَب على وَجْهَيْن :

أَحدهمَا: الْإِرْسَال" كَقَوْل الله تَعَالَى :﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾{سورة الأعراف:١٠٣}، مَعْنَاهُ: أرسلنَا...

وثانيها: الْإِحْيَاء من الله للموتى، وَمِنْه قَوْله جلَّ وعزَّ :﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾{ سورة البقرة : ٥٦}، أَي: أحييناكم" [١].

أما في الاصطلاح فيراد به: إحياء الله للموتى حين ينفخ في الصور النفخة الثانية وإخراجهم من قبورهم أحياء للحساب والجزاء، الذي قدر له من نعيم أو عذاب.

يقول ابن كثير: "البعث: هُوَ الْمَعَادُ وَقِيَامُ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [٢] ".

وعليه فأن البعث هي إعادة الإنسان روحًا وجسدًا، كما كان في الدنيا، وهكذا يكون حينما تتعلق إرادة الله تعالى بذلك، فيخرجون من القبور حفاة عراة، ويساقون ويجمعون إلى الموقف لمحاسبتهم، ونيل كل مخلوق ما يستحقه من الجزاء العادل [٣].

وهذا ما تشير إليه كثير من الآيات الواردة في القرآن الكريم، ولهذا قال الإمام الرازي: "وَلا شَكَّ أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْحَشْرَ وَالْبَعْثَ الْجُسْمَانِيَّ، فَقَدْ أَنْكَرَ صَرِيحَ الْقُرْآنِ" [٤].

ولعظم أمر البعث جاء إثباته في القرآن الكريم بطرق كثيرة، منها:

(١) فتارة بالتصريح: كقوله تعالى:﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾{سورة التغابن:٧}، وقوله :﴿ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ {سورة الأنعام: ٣٦}.

(٢) وتارة بتذكير الإنسان بنشأته الأولى: كقوله تعالى :﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ { سورة الطارق: ٥، ٨}.

(٣) وتارة بالاستدلال بإنبات النبات على إحياء الأموات: كقوله تعالى :﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾{سورة الروم: ٥٠}.

(٤) وتارة بالإشارة والتأمُّل في خلق السموات والأرض: كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾{سورة الأحقاف:٣٣}.

---

(١) تهذيب اللغة : ٢٠١/٢ .

(٢)فسير القرآن العظيم : ٥/ ٣٩٥.

(٣)لعقائد الإسلامية : سيد سابق : ٢٦٩/١ .

(٤) التفسير الكبير:١٦/ ٢٥ .

(٥)وتارة بتنزيه الله تعالى عن العبث، إذ أنه لو لم يكن هناك بعث لكانت الأوامر، والنواهي، والجزاء من العبث: كقوله تعالى :﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ {المؤمنون: ١١٥}.

(٦) وتارة بذكر القصص، والوقائع التي تدلّ على البعث: كقِصَّة الذي مرَّ على قرية، وهي خاوية على عروشها، فأماته الله تعالى مائة عام، ثم بعثه، وقِصَّة قتيل بني إسرائيل، وقِصَّة الذين أُخرجِوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة، وقِصَّة أصحاب الكهف.

متى يكون البعث :

يكون البعث بعد النفخة الثانية، ولكن قبل النفخة ينزل ماء من السماء تنبت منه أجساد العباد، وإنبات الأجساد بعد نزول المطر عليها يماثل إنبات النبات من الأرض إذا نزل الماء عليها، ولذا كثيرًا ما يضرب الله تعالى في كتابه الكريم المثل للبعث، والنشور، بإحياء الأرض بالنبات، قال تعالى :﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ { سورة الأعراف: ٥٧} .

وإن جسد الإنسان يبلى في القبر إلا: (عَجْب الذنب)، فمنه يُركَّب الخلق يوم القيامة، روى أبو هريرة رضي الله عنه: {وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى، إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [(١)].

النشور

والنشر في اللغة: يأتي بمعنى عدة نذكر منها :

(١) يأتي بمعنى البسط فمثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾{سورة التكوير : ١٠}، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ {سورة المرسلات: ٣}أي: الملائكة التي تنشر الرياح أو الرياح التي تنشر السحاب.

(٢) ويجيئ بمعنى الانتشار فمثل قوله تعالى :﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾{سورة الفرقان : ٤٧}، أي: جعل فيه الانتشار وابتغاء الرزق فيها.

(٣) وورد بمعنى تقلُّب الإنسان في حوائجه قوله تعالى :﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ ﴾{سورة الجمعة : ١٠ }، أي: تفرَّقوا فيها.

يقول ابن الأثير: "يُقَالُ: نَشَرَ الميتُ يَنْشُرُ نُشُورًا، إِذَا عَاشَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وأَنْشَرَهُ الله، أَي: أَحْيَاهُ " [(٢)].

النشور في الاصطلاح:

النشور في الاصطلاح يطلق ويراد به معنى البعث، وهو: انتشار الناس من قبورهم إلى الموقف للحساب والجزاء.

فالنشور يراد به سريان الحياة في الأموات، من أنه يراد به البعث في اليوم الآخر وخروج الناس من قبورهم أحياء، وهذا ما فسر به قوله تعالى :﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ {سورة عبس : ٢٢}، قال ابن كثير "أَيْ: بَعَثَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ" [(٣)].

---

(١) التفسير الكبير:١٦/ ٢٥ .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر : ابن الأثير ٥/ ٥٤ .

(٣)"تفسير القرآن العظيم :ابن كثير :٨/ ٣٢٣ .

الفرق بين البَعْث والنشور:

المراد بالبعث إخراج الناس: مِن القبور إلى الموقف، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى :﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾، والمراد بالنشور ظهور المبعوثين وظهور أعمالهم للمخلوقات [1]

الحساب

تعريف الحساب:

الحساب هو توقيف الله وتعالى عباده قبل الانصراف من المحشر لمحاسبتهم على أعمالهم أقوالاً وأفعالاً واعتقادات تفصيلاً بعد أخذهم كتاب أعمالهم.

كيفية الحساب:

كيفية الحساب أمر غيبي لم يرد ما يدل عليه. والناس فيه متفاوتون:

فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً بأن يعرض عمله عليه فيطلعه الله على سيئاته سراً بحيث لا يطلع عليها أحد، ثم يعفو عنه ويأمر به إلى الجنة.

ومنهم من يناقش الحساب، بأن يسأل عن كل جزئية، ويطالب بالعذر والحجة، فلا يجد عذراً ولا حجة فيهلك مع الهالكين ويفتضح بين الخلائق. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ { سورة الانشقاق: ١٢ }

وعن أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله ﷺ {مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِبَ}. فقلت: أليس يقول الله :﴿أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ فقالت: إنما ذلك العرض، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك }.

ومن الجدير بالذكر أنه سيشهد على العاصي يوم القيامة أحد عشر شاهداً: اللسان، والأيدي، والأرجل، والسمع، والبصر، والجلد، والأرض، والليل، والنهار، والحفظة الكرام، والمال، فضلاً عن الشهداء من الناس.

يقول الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ { سورة ق: ٢١}.

روى أنس ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: {هل تدرون مم أضحك} ؟ " قلنا الله ورسوله أعلم. قال: {من مخاطبة العبد ربه فيقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ يقول: بلى، فيقول: إني لا أجيز اليوم على نفسي شاهداً إلا مني فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، والكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه، ويقول لأركانه انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل}.

---

(١)الفروق اللغوية: ٢٨٩ .